ثورة البلاليكا



رواية

مصطفى موسى

كيان كورب
دار ليلى

مصطفى موسى

ثورة البلاليكا

الكتاب:
ثورة البلاليكا
المؤلف:
مصطفى موسى
رقم الإيداع:
22012 /2011
الترقيم الدولي:
978-977-6386-85-3
★★★
الغلاف:
محمد محمود
الإخراج الفني:
حسام سليمان
التدقيق اللغوي:
محمد عبد الغفار
★★★
التوزيع:
عبد الله شلبي
الإشراف العام:
محمد سامي
★★★

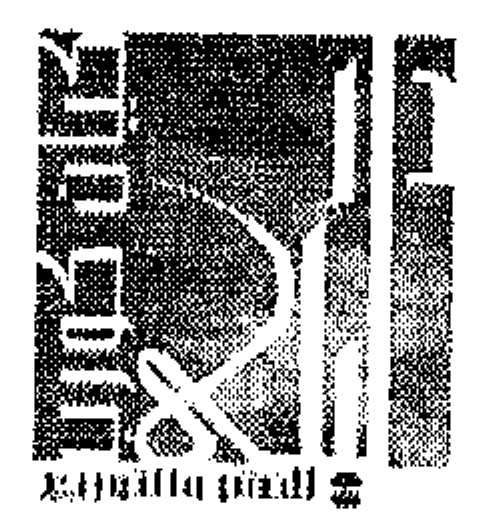
كيان كورب للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23885295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

مصطفى موسى

ثورة البلاليكا



إهداء

إلى «حبة البندق»..

المنصة

امتلأت السماء بالطائرات الحربية في تتابع منظم، تلاحقها أعين الحاضرين للعرض العسكري في ذكرى انتصارات حرب أكتوبر المجيدة، وبدأت السيارات العسكرية وتشكيلات الجنود في المرور من أمام المنصة الشهيرة وهم يؤدون التحية العسكرية للقائد الأعلى للقوات المسلحة، وترجل أحد الضباط من سيارته مهرولاً تجاه المنصة، وقد اعتقد القائد أنه قادم لأداء التحية العسكرية له، فنهض بقوامه المشوق مرتديا قبعته في انتظار رده لأداء التحية، لكنه فوجئ بطلقات الرصاص المنهمر على الجميع..

- الريس مات..

قالها نبيل اللبروس مندهشًا بانزعاج وهو يهب واقفًا على قدميه، وقد التفتت إليه أخته ماجدة مولولة، وعلامات الانزعاج بادية على وجهها:

- يا نهار اسود.. دي تبقى مصيبة... ربنا يجيب العواقب سليمة.

- يا عم نبيل ده تلاقي التليفزيون حصلت فيه حاجة بس، ما تكبرش الموضوع..

خرجت الكلمات ممطوطة باردة كالثلج من فم مجدي زوج ماجدة، وهو يحتضن طبقاً بلاستيكيًّا في صدره العاري، إلا من فانلة حمراء بحمالات، تظهر كتفيه كثيفتي الشعر.. ويداه الاثنتان تتبادلان على فمه بتوالٍ منتظم، وهي تحمل قطع البطيخ الذي تعتصره عضلات فمه كمكبس عربة قمامة، ثم يلفظ البذور السوداء إلى الطبق نفسه.

- أنا لازم أسلم نفسي للوحدة فورًا... أحسن أروح في سين وجيم لو كان فيه حاجة.. ده فيه طلق رصاص قبل الإرسال ما يفصل..

نهض نبيل مسرعًا إلى وحدته العسكرية في الرأس السوداء بالإسكندرية.. وقد ارتدى زيه العسكري البحري ذا اللونين الأزرق والأبيض، ودلف إلى كتيبته بعد أن وقَّع في دفتر الأمن على بوابتها، وقبع فيها حتى تنكشف الغمة التي أحاطت بالبلد بعد اغتيال الرئيس أنور السادات.. قبل أسبوع من انتهاء خدمته في الجيش، ليعود بعدها إلى موطنه بمدينة بورسعيد، يعمل في تجارة كل ما هو مستورد.. ككل البورسعيدية، ويتم زفافه على خطيبته نرجس، التي تعمل في بيع الملابس في سوق القنطرة، فهي تجارة مربحة، يعيش منها أبناء بورسعيد في رغد وثراء، يتزوجون ويمتهنون مهنة آبائهم، يستغلون الحركة الدائمة لسفن لشحن والتفريغ، وأنواع التجارة والبضاعة الكثيرة، فيتفاخر القاطنون في المحافظات الأخرى بأن أحدهم اشترى حذاءً رياضيًّا

مستوردًا من بورسعيد، وأخرى أعدت جهاز ابنتها المقبلة على الزواج بخلاط وطقم «حلل» تشيكي من بورسعيد، التي أصبحت قبلة الأغنياء قبل الفقراء لشراء حاجياتهم التي يتباهون بها بين معارفهم وأصحابهم.

وعلى أنغام لا تخطئها أذن مصري، تميز حفلات زفاف البورسعيدية، وفي شادر امتلأ عن آخره بتجار شارع الثلاثيني، مجاملة لابن الحاج عابد اللبروس، رفيق تجارتهم على مدار السنين، صدحت السماء: «أنا بورسعيدي وبمبوطي.. وببيع بضايع أسيوطي...»، وكان زفاف نبيل، ابن الحاج عابد اللبروس في ليلة تحاكي بها سكان أحياء طرح البحر وأوجيني وجميع أحياء بورسعيد.

الحاج عابد اللبروس، التاجر الأشهر في بورسعيد، الذي يعرف الجميع أصله منذ أن كان جده سليمان اللبروس يعمل في جزيرة «تنيس» ببحيرة المنزلة في تصنيع كسوة الكعبة في العصر الإسلامي.. قبل أن تدمَّر تلك الجزيرة في الحملات الصليبية، وحتى عابد نفسه قد عمل في بناء الكاتدرائية اللاتينية في ثلاثينات القرن الماضي، التي يوجد بها جزء من صليب السيد المسيح، عندما كان طفلاً صغيرًا ينقل الحجارة للبنائين.

وفي ليل السمر الكثيرة، بينه وبين باقي تجار حي طرح البحر، كان يتفاخر بأصوله ونسبه الراسخ في المكان قبل أن تظهر المدينة على يد الخديو

سعيد عندما ضرب فرديناند ديليسبس أول معول في الأرض معلنًا حفر قناة السويس. وذلك في الخامس والعشرين من شهر أبريل عام 1859، وقد سميت باسمه «ميناء سعيد» عند بدء الحفر لقناة السويس. وقد تأثر سكانها الأصليون بعادات الجنسيات الكثيرة التي كانت مجتمعة في بورسعيد، وأصبغت عليها الطابع الثقافي للمدينة.. فالالتزام وحب العمل والمهارة في المعاملات التجارية كانت نتاج اختلاط جنسيات البحر المتوسط من اليونانيين والفرنسيين وحتى الإنجليز..

عاد عابد اللبروس لممارسة نشاطه في التجارة عام 1976، بعد أن أُغلقت المدينة وتهدمت في العدوان الثلاثي وحروب الاستنزاف، وعلى العكس من الفكر الاشتراكي السائد في تلك الفترة، الذي يعلي من شأن العلم ويسفه الفكر الرأسمالي، كان عابد اللبروس يلقي بمصاعب الأعمال على كاهل ابنه نبيل، ليشتد عوده ويملك السوق في يوم من الأيام كما كان يردد عابد على مسامعه وهو صغير.

وفي تلك المدينة التي يعلم ساكنوها منذ طفولتهم قوة المال وطعمه الذي يملأ صاحبه بالثقة، كان من الصعب على نبيل اللبروس أن يتخذ مسار التعليم الجامعي؛ فقد اكتفى بدبلوم المدرسة الصناعية بعد دراسته الإعدادية، واستقل بتجارة والده من الملابس المستوردة، كبقية شباب وفتيات بورسعيد، فدائمًا ما

تقف السيارات الفارهة أمام محله ذي الطابقين في شارع «يوجيني»، يترجل منها ما تكشف هيئاتهم عن علية القوم، يتوددون للشاب ذي التاسعة عشرة، ليخرج لهم ما في جعبته من أشياء مخصوصة لذوي الحظوة عنده. وقد تعلّم من تجارته كيف يتحدث كأصحاب النفوذ، وتعود على الحديث كأصحاب المناصب والأذواق الرفيعة من كثرة تعامله معهم. وذلك الانفتاح الاقتصادي الذي غزا المجتمع في السبعينات والثمانينات، وتراجع التقييم بالمعيار الاشتراكي للأشخاص بما يحملون من شهادات إلى التقييم بالمعيار الرأسمالي بما يحوزه من أموال. واستتب له العيش مع زوجته نرجس، ولكن دائمًا ما كان هناك شيء يفتقده، ولم يفطن إليه إلا بعد مرور سنين، وهو الاحترام الصادق لشخصه وليس لماله، الذي بدأ ينهض مرة أخرى في نفوس الناس، والمرتبط بما يحصل عليه الفرد من علم وشهادات، بعد أن انفجرت مصائب محدثي النعم، ووصم كل من يملك مالاً بأنه ثري حرب ومصاص دماء الشعب، تلوث الشائعات سمعتهم. وأيقن نبيل تلك الحقيقة المتأخرة، فعاهد نفسه أن يربي أبناءه على احترام العلم وعدم التفكير بالمال وكأنه وسيلة للحصول على ما يذكي العقل ويثري الحياة.

الأخرس

في القطار المتجه من محطة رمسيس إلى الإسكندرية، وضع سيف الدين الطبجي حقيبته في المكان المخصص لها بعربة الدرجة الأولى الفاخرة، وعلق حقيبة جلدية بداخلها بذلته البيضاء ذات الكتافات الزرقاء، الدالة على دراسته في الأكاديمية البحرية بميامي في الإسكندرية، على حامل بجوار نافذة مقعده بالقطار، وأخذ يدعو الله ألا يأتي أحد ليجلس بجواره في المقعد الخالي، ليريح نفسه من ثرثرة سخيفة تعوَّد عليها المسافرون قتلاً للوقت، وكعادته دائمًا في سفرياته الأسبوعية الكثيرة، كان ينتحل شخصيات وهمية ذات طابع غير ودود، حتى يسكت من يسوقه حظه التعس ليجلس بجواره، إلى أن هداه تفكيره ذات مرة إلى أن يدعي الصمم، وراقته الفكرة التي أصبحت عادة عنده بمجرد ركوبه القطار. انتزعته من أمانيه، تلك الرائحة الهادئة لعطر أنثوي خفيف، بمجرد أن جلست بجواره فتاة متوسطة الطول نحيفة الجسد، ذات شعر أسود قصير إلى ما تحت شحمتي الأذن بقليل، تخفي نصف وجهها الأبيض وعينيها العسليتين بنظارة شمس بنية اللون، وتستقر على أنف مدبب صغير، أخذت تنظر الفتاة إلى تلك

الورقة التي في يدها وتتأكد من رقم المقعد المسجل عليها ومقارنته بالرقم المطبوع على إطار النافذة، وحاولت رفع حقيبتها الرياضية لتضعها على الرف دون جدوى، فنهض سيف بسرعة ورفعها بجوار حقيبته وجلس مكانه دون أن ينبس بكلمة، على الرغم من سماعه لصوت نوال الناعم شاكرةً له، والتي أخفت امتعاضها من عدم رد سيف عليها دون اهتمام. ارتمت نوال على المقعد بجسدها الذي يتخفى تحت ملابس رياضية فضفاضة بجوار سيف الدين، المنهمك في قراءة مجلة أجنبية متخصصة في علوم البحار بين يديه، وقد صمم على تطبيق خطته كالعادة، التي لم تفشل من قبلُ، وتحرك القطار بعد سماع جرس ناظر المحطة، حتى وإن أتى الكمساري ليراجع التذاكر الورقية، لم يلتفت إليه سيف الدين ممعنًا النظر فيما بين يديه ولم يستجب لكلمات الواقف على رأسيهما.

- تذاكر لو سمحت يا بيه....

كررها الرجل ثم مد يده إلى اتجاه الراكب مدعي الصمم، الذي التفت فجأة إلى صاحب اليد وكأنه سمع من خلال عينيه، وأشار بيده إشارات تعلمها من ورقة اشتراها بعشرة قروش من أحد الأطفال المدعين للإعاقة، ليتعلم لغة الإشارات الخاصة بهم. ثم أخرج تذكرته وناولها للكمساري الذي أخذ يحوقل وهو يتناول الورقة من يد من أشفق عليه من إعاقة الخرس والصمم، وهو الشاب مفتول العضلات ذو الوجه الجميل. وأخذت نوال تتفحص الجالس بجوارها

شزرًا دون أن تلفت الانتباه بعد أن انصرف الكمساري، وهي تدقق فيه من أول حذائه الأسود اللامع وهو يضع ساقًا على الأخرى، وذلك البنطال البيج ذي الكسرة المكوية كحد السيف المتد إلى وسطه، والقميص الأزرق الباهت وقد شمر حتى منتصف ساعديه كاشفًا عن ذراعين مشعرتين، تتحدد عضلاته في تناسق من يمارس الرياضة لزمن طويل، تزين معصمه ساعة رياضية ضخمة يستخدمها هواة الغطس. وتلك القطعة المعدنية المثلثة والمحفور عليها اسم ماركة شهيرة للملابس في ركن جيب القميص أعلى الصدر، لا يقدر على شرائها سوى الأثرياء.

لم يبد سيف أي التفاتة تنم عن ملاحظته تفحصها له، لاعنًا خطته الوقائية ضد الثرثرة، التي منعته من مجاذبة أطراف الحديث مع فتاة جميلة تتفحص ملامحه بخبث البنات، إلى أن سمعها تتمتم بصوت خفيض وهي تكلم نفسها قائلة باندهاش وحسرة:

- خسارة.. شاب زي القمر وأخرس.. حكمتك يا رب.

أمسك سيف الدين ضحكة كادت تهرب من صدره إلى وجهه، محاولاً الاستمرار في لعبته.. ثم استسلم أخيرًا إلى الأمر الواقع واضعًا نظارته الشمسية على عينيه تفاديًا لأشعتها المقبلة من النافذة المجاورة له، وأسلم نفسه للنوم هربًا من التفكير في من تجاوره لحين وصولهم إلى الإسكندرية.

- سيدي جابر يا حضرات.. اللي نازل سيدي جابر.. المحطة الجاية.

رددها السفري المسئول عن ركن العفش وفتح الأبواب، وقد نهض سيف الدين من مقعده ليجهز حقيبته وبذلته المدفونة في قبرها الجلدي، والتفت إلى صاحبة الأصابع الرقيقة التي تربت على كتفيه ليجد نوال قد نزعت نظارتها، وابتسامة ساحرة جمدته في مكانه لبرهة وهو ينظر إلى الغمازتين بطابع الحسن في وجهها، وهي تشير إلى حقيبتها المجاورة لحقيبته محاولة طلب مساعدته في إنزالها. ابتسم لها وهو يحمل حقيبتها مشيرًا إليها بالتقدم أمامه في حركة شهامة تقليدية، انصاعت له وهي مشفقة عليه من عاهته الكاذبة، وسارت أمامه تتبختر في مشيتها وهو يحاول جاهدًا أن يمنع نفسه من تفحصها من الخلف.. حتى إن سكن القطار على الرصيف أشارت له شاكرة محاولة أن تأخذ منه حقيبتها، لكنه أبى، مشيرًا لها بوجهه ناحية مخرج المحطة، فلم تُبدِ اعتراضًا للمرة الثانية، وسار الاثنان إلى الخارج إلى أن أتى سائق تاكسي متسائلاً عن وجهتهما..

- شارع أحمد شوقي.. رشدي.

قالتها نوال وهي تنظر إلى سيف بامتنان، الذي ناول السائق حقائبه وحقائبها، وقد اعترتها الدهشة والقلق بعد أن وضع السائق الحقائب في مؤخرة التاكسي.. ودلفت إلى الكنبة الخلفية للسيارة واستقل سيف المقعد الأمامي بجوار

السائق قائلاً له بصوت هادئ رزين:

- هنوصَّل الهانم.. وبعدين توصلني الأكاديمية البحرية في ميامي..

أسقط في يد نوال، التي ظهر الحنق والغضب باحمرار وجهها المنعكس في المرآة الأمامية، ونظرات سيف إليها محاولاً الاعتذار بتعابير وجهه دون جدوى.. ولم تنطق نوال طيلة الطريق، وبالمثل كان الصمت هو ما أصاب سيف الدين، إلى أن أشارت نوال للسائق بالوقوف أمام فيلا صغيرة، تخفي معالمها من الخارج أشجارٌ كثيفة على طول الشارع المتشابهة مبانيه مع بعضها البعض، وترجلت من السيارة بعصبية واضحة، وهبط السائق ليخرج لها حقيبتها التي هرول بواب الفيلا بمجرد سماعه لصوت غلق باب التاكسي زاعقاً:

- حمد الله على السلامة يا ست هانم.

واتجهت نوال إلى السائق الذي كان يهم بالتحرك لولا إشارة من يدها بالتوقف، وقذفت في يده ورقة نقدية فئة العشرين جنيهًا، تكفي عمله طيلة اليوم، قائلة والشرر يتطاير من عينيها:

- ده حسابي وحساب البيه الأخرس اللي جنبك..

وانصرفت مسرعة ونظرات الاندهاش بادية على وجه السائق، وعين سيف الدين تلاحقها حتى ابتلعتها أشجار الفيلا قبل غلق بوابتها.

- يلا بينا يا أسطى.

لم ينبس السائق بكلمة طيلة الطريق إلى أن وصل راكبه إلى بوابة حديدية ضخمة، تظهر من بين قضبانها ملاعب خضراء ومبنى ضخم في ركن بعيد من تلك المساحة الشاسعة، وترجَّل سيف من التاكسي متجهًا إلى أكاديميته ليوقع في دفتر حضوره في مكتب الأمن.

السوق الحرة

- الدنيا بتضيق والرزق في بورسعيد بيقل كل شوية يا أم أدهم، والعيال بتكبر ومصاريفهم بتكبر معاهم.

قالها نبيل اللبروس وهو شارد في سحابة الدخان الخارجة من أنفه وفمه القابض على مبسم الشيشة، تناوله زوجته نرجس كوب الشاي بعد أن أذابت السكر القابع في قعره.

- ربنا ينشفها عليهم يا أبو أدهم.. أنا مش عارفه الحكومة عاوزة إيه! يعني حكاية المنطقة الحرة والتجارة والكلام اللي مش مفهوم ده يقصدوا بيه إيه؟ ما احنا طول عمرنا شغالين.. البمبوطية يسترزقوا من المراكب اللي بتعدي والتجار يسترزقوا من الحاجات المستوردة اللي بتنزل.. والناس عايشة كويس.. مش المفروض ان الحكومة تبقى عاوزة شعبها شغال ومبسوط.. ولا إيه؟!

- والله ما انا عارف حاجة يا نرجس.. دلوقت بيع الهدوم والتليفزيونات وأدوات الكهربا ما بقاش زي الأول خالص.. كل شوية قوانين جديدة.. حاسس انهم مستكترين اللقمة بتاعتنا.. كأن بورسعيد عاملة عمل.. لولا ورث المرحوم أبويا وأبوكي كان زمانّا شحتنا في الشوارع أو بنلف على القهاوي بشوية ساعات

- ربنا ينتقم منهم الظلمة.

أطرق نبيل صامتًا لبرهة وعيناه محملقتان في الفراغ وكأنه يستجمع فكرة سابحة أمامه، ثم نطق بصوت به مسحة من انكسار وكأنَّه مجبَر على الكلام:

- أنا هتاجر في قطع الغيار المستعملة.. تجارة مضمونة وسوقها شغال في مصر كلها.. واهي حاجة ولا فيها سوق حرة ولا سوق سودا.

- اللي تشوفه يا خويا.. انت في السوق وعارف..

- والواد أدهم أخبار الدراسة معاه ايه؟

تساءل نبيل وهو يحاول أن يتناسى همومه المثقلة كتفيه قليلاً، وارتشف من كوب الشاي وهو يعتدل في جلسته على الكنبة المواجهة لكرسي نرجس، التي أجابته:

- والله الواد مقطع نفسه في المذاكرة، بس هو عاوز مصاريف الدروس، أحسن ابنك حمقي، ما يجيش أول الشهر إلا لما يكون دافع شهرية المدرسين.

أجابته نرجس وهي تغير حجر الشيشة لزوجها، وتضع قطعة الفحم المتوهجة عليه..

- والله الواد أدهم ده حسيس.. ربنا يكرمه ويدخل كلية الطب اللي عاوزها، خليه يسيب الغلب اللي احنا فيه.

- والله بدعيله كل فجر هو واخواته الاتنين..

- يا ولية ركزي عليه هو بس السنة دي.. لسه اخواته صغيرين وبدري عليهم شوية..

نظر نبيل إلى زوجته مداعبًا لها، وضحكاتها التي لطالما يتأملها بشوق تتردد في جنبات المنزل، يربت على كتف رفيقة عمره بحنان قائلاً:

- ربنا كرمني بيكي يا نرجس، وكرمنا احنا الاتنين بخلفة نشكر ربنا عليها طول العمر..

منعت طرقات خفيفة على الباب نزول دمعات كادت تفارق مقلتي نرجس، التي نهضت لفتحه لتجد أدهم مستندًا إلى إحدى ضلفتيه مبتسمًا بمكر. فنغزته أمه بقبضة يدها في كتفه قائلة بغضب مصطنع:

- انت يا واد مش هتبطل حركاتك دي؟

- يا حتة من قلبي أنا شامم ريحة الشيشة من أول الشارع، وعارف ان الحاج بيعسل معاكي، فحبيت أتنحنح قبل ما أنزل براشوت على جوز اليمام.

قالها أدهم وهو يتقافز أمام والدته التي صاحت به وقد شخصت ببصرها إلى زوجها في خجل:

- اختشي يا واد..

- تعالى يا أدهوم جنبي.

وأشار نبيل إلى ابنه ليجلس بجواره بعد أن وضع حملاً من الأوراق والكتب على رف المكتبة القابعة أمام سفرة طويلة في ركن واسع من البيت.

- أخبار الدراسة إيه يا سبع؟

- الحمد لله يا حاج.. كله تمام.. ما تقلقش خالص.. إن شاء الله طب.

- إن شاء الله يا ابني.. خد فلوس المدرسين بتوعك.. ودول عشان تشبرق نفسك بيهم.

وأخرج نبيل من تحت وسادة كان يضطجع عليها محفظة جلدية، معطيا ابنه مصاريف دروسه الخصوصية وهو يلعن في سيرة المدرسين والمدارس الحكومية التي تشاركه في رزقه كل شهر، دون أن يبدي امتعاضه لابنه الذي قبّل يد أبيه الممدودة له بالنقود.

غزل الولاد

استقل سيف الدين التاكسي الأصفر المميز لمحافظة الإسكندرية من أمام بوابة الأكاديمية بميامي، في زيه الأزرق الأنيق الخاص بطلبة الأكاديمية البحرية، متجهًا إلى شارع أحمد شوقي بحي رشدي الراقي، وترجل أمام الفيلا التي دلفت إلى داخلها منذ أسبوعين من سخر منها طيلة ساعتين ونصف الساعة في القطار من القاهرة إلى الإسكندرية، وذرع الشوارع الهادئة المحيطة بالفيلا جيئة وذهابًا، إلى أن قفزت إلى ذهنه فكرة مجنونة هي أن يقف أمام محل زجاجي الجدران لبيع الزهور، وجعل الصبي يعد له باقة من الورد بعناية شديدة، تدل على ذوق عال، ووصف له الفيلا المنشودة، ونفحه بقشيشًا سخيًّا بعد أن أوضح له العامل أنه يعرف الدكتور مظهر صاحب الفيلا وأستاذ الهندسة بجامعة الإسكندرية.. وأخذ سيف في سؤال الصبي الذي استرسل في الكلام والحديث بعد أن فكت النفحة النقدية عقدة لسانه، وعلم سيف أن الدكتور مظهر يقطن مع زوجته الطبيبة وابنتيه، إحداهما تدرس بكلية التربية الرياضية وهي الصغرى، والأخرى تعمل في القنصلية البريطانية وهي الكبرى، لكنه لا يعلم

اسميهما، وتملكت الحيرة سيف الدين فيما يكتب على باقة الورد من اسم، واتفق مع عامل التوصيل أن يطلب من البواب توصيل الباقة إلى ابنة الدكتور التي أتت قريبًا من القاهرة مساء الجمعة الماضي، وخط على كارت من المحل: «أعتذر عن المزحة السخيفة التي تعودت عليها طيلة أسفاري.. التوقيع: البيه الأخرس».. ترك سيف الدين اسمه في محل الزهور، وانصرف عائدًا إلى ميامي، واتجه عامل التوصيل إلى فيلا دكتور مظهر يستوقفه البواب الذي تناول منه الورد بعد أن أخبره ما لقنه إياه سيف.

- آه.. انت تقصد الست نوال؟ طيب أقولها من مين؟

- مكتوب على الكارت يا عم الحاج.

انصرف العامل إلى محل عمله، تاركًا البواب يصعد إلى شقة ذات باب خشبي مطعم بقطع من الزجاج الملون والنحاس الأصفر اللامع، وخرجت له سيدة تجاوزت الأربعين من العمر مندهشة من باقة الزهور التي يحملها عم فاروق، الذي استدرك اندهاش مخدومته قائلاً:

- الورد ده للست نوال.

- مين اللي جابه يا عم فاروق؟

- الواد بتاع الورد في الشارع اللي ورانا يا هانم.

- شكرًا يا عم فاروق.

التقطت منه الدكتورة نادية ما في يده، ودلفت إلى الداخل وهي تمسك بالكارت الخاص بالمحل، تتفحصه وتقرأ ما هو مكتوب عليه، وتتجه إلى غرفة ابنتها نوال الممددة على فراشها وهي تقرأ رواية «العابرون» لكاتبتها المفضلة دانيل ستيل..

- إيه حكاية الورد ده يا نونو؟

سألتها نادية وهي تضعه على الكرسي المقابل لفراشها، وتُناولها الكارت المصاحب له، وبعد أن قرأت نوال ما به استشاطت غضبًا ظهر على احمرار وجهها، ونهضت تلتقط سماعة الهاتف وتضغط بأصابعها الرقيقة أرقام محل الزهور دون أن تجيب والدتها.. ولم تترك فرصة لمحدثها على الطرف الآخر أن يرحِّب بها كعادة تلك المحلات، وإنما انفجرت فيه تكيل له تساؤلاتها المحرجة:

- ازاي تبعتوا ورد وانتو ما تعرفوش مبعوت لمين؟ انتو فاكرين نفسكم في فيلم شحات الغرام ولا إيه؟ المفروض انكم محل محترم وما يقبلش الحركات بتاعة العيال الصغيرة.. وأصلاً مين هو اللي باعت الورد؟

جاءها الرد بأن شابًّا يرتدي بذلة ضباط البحرية ويدعى سيف الدين الطبجي هو صاحب تلك الطلبية، ولم تترك له نوال فسحة للاعتذار، وأغلقت

السماعة بعنف ونظرات والدتها المندهشة تلاحقها وهي تقذف بجسدها على السرير مرة أخرى زاعقة:

- سخافة وقلة أدب.

وتساءلت والدتها مرة أخرى عن سبب هذا الغضب، وسر هذا الورد.. فبدأت نوال بعد أن التقطت أنفاسها في حكي ما حدث منذ ركوبها القطار حتى دخولها إلى الفيلا، من دون الإشارة إلى جملتها الخافتة.. التي ربما تكون السبب في إحساسها بتلك المهانة والانزعاج لكرامتها.. التي حدثت بها نفسها وهي تجلس بجوار من ادعى الخرس.

ضحكت نادية وهي تربت على كتف ابنتها محذرة لها قائلة:

- حصل خير يا ستي، هما بتوع الأكاديمية كده.. معروف عنهم الصرمحة واللعب، أنا هأكد على فاروق انه ما يستلمش حاجة كده خالص.. هدِّي أعصابك يا نونو بقى.

قالتها الأم بحنان وفخر برد فعل ابنتها ورجاحة عقلها، وغادرت حجرة نوال التي أمسكت بروايتها مرة أخرى محاولة أن تعيش مزاج وحياة أشخاصها، لكن عقلها أخذ في استرجاع موقفها مع سيف منذ البداية، وظهرت ابتسامة مصاحبة بشعور الأنوثة والثقة فجأة، لم تعرف نوال سببًا له، أو لم تحاول أن تعرف.

وعلى مائدة العشاء، التي تتحلق الأسرة الرباعية عليها كل يوم مهما كانت الظروف، جلست الدكتورة نادية، صاحبة أشهر معمل للتحاليل الطبية في الإسكندرية، قبالها زوجها الدكتور مظهر، وأخذت نادية في حكي ما حدث مع نوال، وتعالت ضحكات فيفي، الابنة الكبرى، وأبيها الذي نظر إلى ابنته الصغرى قائلاً:

- ده تلاقيه واد بيتسلى.. أنا بكرة هتصل برئيس الأكاديمية يشوف إيه الحكاية، ويقرص ودنه. أحسن يكون مفكر ان بنات الناس لعبة، خصوصًا إن الطلبة معظمهم مش مصريين.

- بلاش يا دادي.. الموضوع انتهى وخلاص.. على رأي مامي، إحنا هنشوفه فين تاني.

قالتها نوال كمن يريد أن يدرأ خطرًا عن شخص مهتم لأمره، ولم يلحظ الوالدان قلقها، إلا أختها فيفي وهي تنظر إلى وجهها من أسفل عدسات نظارتها الطبية. وانتهى العشاء وتحلق الجميع حول التليفزيون بعد أن رفعت الخادمة الأطباق وأتت بفناجين الشاي.. ينهمك كل منهم إما بالقراءة وإما مشاهدة مسلسل السابعة والنصف مساء.

فيفي، تعودت منذ صغرها على الحياة البحرية منذ أن كانت في مدرسة «ليسيه الحرية» التي تنتهج نمط الدراسة الأوروبية؛ فثقتها بنفسها قرَّبت إليها

مدرسيها، وجعلتها ذات شهرة بين زملائها من صفوة عائلات المجتمع السكندري.

حتى التحاقها بالجامعة الأمريكية، وإصرارها على استقلالها بسكن منفرد في شقة أبيها بالقاهرة.. وقد كانت لتلك الشخصية المنفتحة شهرة أيضًا في مرحلتها الجامعية، ولكن كانت هناك دائمًا مشكلة.. مشكلة في عقول من يحيطون بها؛ فهي لم تضع اعتبارًا لتلك الفروق التي تعوَّد المجتمع على النظر بها إلى الإناث؛ فمهما كان الشاب متفتح العقل فهو لا يريد الارتباط بمن يشعر معها أنها لا تحتاجه.. أنها الأقوى.. أو حتى أنها متساوية معه.. فالاستغناء العلمي والأدبي وحتى المادي دائمًا ما كان عائقًا في دائرة فيفي العاطفية، فكثيرًا ما أعجب بها فتيان، ووقع في غرامها من يرى أنها مختلفة عن الباقيات، لكنه يأبى أن يرتبط بمن يخاف منها.. بمن يخشى أن تسحب من تحت شخصيته بساط السيطرة. فترفض دائمًا أن تسلم مفاتيح شخصيتها لأيٍّ كان.. على الرغم من تودد الكثيرين إليها، دون أن يصلوا لمرحلة الارتباط.

كانت تشعر بشيء غير مريح في عيون المصريين الذين تتعامل معهم.. فهم يستكثرون عليها أن تكون ذات رأي صائب، أو أن يستمعوا لها بإنصات، وغالبًا ما كانت تشاهد في وجوههم بلاهة واستنكار وترى كلمات لا ينطقون بها «هي فاكرة نفسها فاهمة كل حاجة! ولا عشان شوية الإنجليزي اللي دوشانا

بيهم!»، فآثرت السلامة وبحثت عن راحتها وسلامتها النفسية مع من يشبهونها، فأبت أن تعمل في أي مكان مصبوغ بالسلوكيات المصرية، وعملت في القنصلية البريطانية بالإسكندرية بمرتب يمكن أن يكون أقل من مهاراتها وإمكاناتها في مواقع أخرى. إلى أن تأتيها الفرصة للعمل في السفارة البريطانية بإسبانيا، بعد أن أثبتت كفاءة حسدها عليها الجميع. وتتذكر دائمًا تلك الكلمات التي ختم بها ذلك الإنجليزي عمله معها في آخر يوم له:

- لن يقدرك أحد هنا.. فالجميع يخشى ذكاءك، وثقتك بشخصيتك النادرة، وهو ما سيكون سبب تعاستك في الحياة.

الدقي

أسفل شمسية مائلة للخلف قليلاً، تلقي بظلالها على الجالسين أسفلها في نادي الجزيرة، تتمدد شهيرة على «شيزلونج» بلاستيكي وهي تخفي نصفها الأسفل برداء شفاف أخضر اللون، مرسومة عليه ورقات شجر عريضة ليحجب ما تحته من ساقين بيضاويتين وباقي قطعة المايوه البكيني برتقالي اللون، ترتدي نظارة شمسية سوداء، تحميها وقبعتها العريضة فوق رأسها من أشعة الشمس، ترقب عن كثب طفلتها شيماء التي تنهب حمام السباحة جيئة وذهابًا، وعلى طرف الحمام الآخر يجلس ابنها حسن، تاركًا قدميه تلامس الماء وهو يتأمل كعادته من هم فيه، يتصايحون ويلعبون، ومن يرقدون على جنباتهم يستمتعون بالشمس وهم صامتون، ولم يلحظ والدته وهي تنهض من تحت خلوتها، تنزع عنها القبعة والنظارة و«الكاش مايوه»، وتقفز بنعومة إلى الماء، تغوص بسرعة إلى أن تصل إلى قدمي طفلها ذي السبعة أعوام، وتمد يدها في هدوء وتداعب بطن قدمه وقد انتفض بحركة لا إرادية مفزوعًا، وضحك مطمئنًا عندما وجد وجه أمه يخرج من تحت المياه الصافية وهي تسحبه ليسبح بجوارها إلى الجانب الآخر من حمام السباحة، وخرج الاثنان تتساقط المياه منهما، وتمسك شهيرة بيد

صغيرها، ويدها الأخرى تشد به حدود المايوه الذي انحسر كاشفا عن قدر من مؤخرتها، وجففت جسد حسن، الذي دفن رأسه في صدر أمه يتشمم رائحتها ليشعر بالأمان كعادته دائمًا، وارتدت هي ما تخفي به نصفها الأسفل مرة أخرى، وأخذت تتلفت باحثة عن شيماء مشيرة لها ناحية معصم يدها إشارة إلى انتهاء الوقت، ورجوعهم إلى البيت لاستقبال والدهم.

نزلت شهيرة وطفلاها من سيارتها البيجو بعد أن وضعتها في الجراج الملحق بمنزلهم المكون من أربعة طوابق في حي الدقي الهادئ، تحيط به حديقة ذات أشجار طويلة وعتيقة، واستقلت المصعد الصغير إلى الدور الثالث، وهي تنظر في مرآته القابعة خلفها، تدقق في ملامح وجهها الأبيض وتقترب به منها، متأملة شفتيها الرفيعة وأنفها الصغير المدبب إلى أن توقّف المصعد وخرجت خلف طفليها إلى باب شقتهم الذي ثبتت عليه قطعة نحاسية صفراء محفور عليها باللون الأسود «كابتن طيار أشرف الطبجي».

دلفت إلى الداخل تستقبلها الخادمة قائلة :

- البيه اتصل من المطار وسأل عن حضرتك.. وقولتله ان حضرتك في النادي..

أومأت شهيرة برأسها للخادمة دون التفاتة، واتجهت إلى غرفتها وهي

تشير إلى طفليها:

- كل واحد على أوضته يا ولاد.. تاخدو شاور وتغيروا هدومكو.. وانتي يا سنية سخني الأكل بسرعة وامشي.

اختفى كل من كان في الصالة الواسعة لينفذ تعليمات شهيرة، التي اتجهت إلى حمام غرفتها، تملأ البانيو بالماء وهي تضع الأقراص الزرقاء التي بدأت في الفوران والتحلل، محدثة رغاوي كثيفة ذات رائحة عطر نفاذ، ووضعت نفسها في المياه بعد أن نزعت عنها ملابسها، وأخذت تدلك جسدها بالصابون بسرعة ثم وقفت لينساب الماء على رأسها ساحبًا معه آثار الصابون، وارتدت روب الحمام في عجلة عند سماعها صوت أشرف قائلاً بصوت عال:

- فين الكتاكيت بتوعي؟

خرج حسن وشيماء من غرفتيهما مسرعين إلى أبيهما الذي ترك قبعته على كنسول بجوار الباب، وأنزل ما في يديه من أكياس باهرة اللون، تحمل أسماء ماركات شهيرة في عالم الملابس، وفتح ذراعيه لطفليه محتضنًا كلاً منهما. وارتمى ثلاثتهم على الكنبة القريبة وقد خرجت شهيرة مبتسمة وهي تضع يديها الاثنتين في وسطها مداعبة لزوجها:

- حمد الله على السلامة يا أبو الكتاكيت.

واتجهت إليه محتضنة إياه وهو جالس على الكنبة لا يقوى على الحركة

من تعلق شيماء وحسن برقبته وقد انضمت إليهما شهيرة. وأشار أشرف إلى كل من حسن وشيماء في اتجاه هداياه بجوار الباب قائلاً:

- الشنطة الكحلي لحسن والموف لشيمو.. والزرقة لشوشو.

حمل حسن وشيماء هداياهما واتجها إلى غرفتيهما، وتناول أشرف هدية زوجته ودلف إلى غرفة نومه، والتفتت هي إلى الابنين قبل أن تلحق بزوجها قائلة:

- العشا بعد نص ساعة يا ولاد.

أخرجت شهيرة ملابس زوجها على السرير بعد أن جهزت له الحمام، واتجهت إلى المطبخ بعد أن احتضنت أشرف من وسطه، وضمها هو إلى صدره وهو يحملق في عينيها وهي تقول وأنفاسها تلامس وجهه:

- وحشتني.

* * *

ارتفع صوت المؤذن بالمسجد الخاص بنادي الجزيرة، إيذانًا بصلاة الجمعة وقد خرج كل من سيف الدين وأخيه أشرف من حمام السباحة ملوحين لحسن ومحمد ليلحقا بهما، ونهضت نوال وشهيرة الجالستان تحت مظلة تتحدثان كسلفتين مصريتين عن غياب زوجيهما واحتياج الأطفال لوجودهما في تلك السن.. وقطعتا الحديث عند وصول الزوجين، وقد تناولت كل واحدة منهما

«بشكير» تجفف به جسد زوجها، ثم ارتدى كل منهما بنطالا و«تي شيرت» واتجها إلى المسجد يلحق بهما حسن ومحمد بعد أن فعلا مثلما فعل أبواهما، خلا حمام السباحة قليلاً من الرجال وبعض النسوة وهدأ الصخب مع صوت الإمام البعيد وهو يلقي خطبة الجمعة القصيرة، ونظرت شهيرة تراقب طفلتها شيماء وهي تلعب في الماء مع إحدى صديقاتها:

- أخبار طنط وأونكل إيه يا نونو؟

- الحمد الله يا شوشو كويسين.. بس آخر مرة كانوا عندنا ما كانوش مبسوطين قوي..

- ليه كده؟ ده حتى أونكل مظهر حبوب قوي.

قالتها شهيرة وقد التفتت إلى نوال وهي منزعجة..

- بابي ومامي كبروا خلاص وقلقانين على فيفي.. لغاية دلوقت مش عاوزة تتجوز.. عايشة في إسبانيا مع شغلها وحياتها ومش مهتمة بحاجة تانية خالص.

- هي مش عاوزة تتنقل مصر؟

- بابي ومامي أصلا عاوزين يهاجروا هناك، مامي في مشاكل مع وزارة الصحة، وبابي الجامعة بتفوِّت الترقية بتاعته كل شوية بحجة إن تقاريره الأمنية مش كويسة. مش عارفة إيه الرابط بين ترقية أستاذ جامعة بالتقارير

الأمنية؟ كل ده عشان ما بيهللش زي باقي زمايله.. حاجة تقرف. فيفي بدأت ترتبلهم شغل في الجامعة بعد ما اتعينت بالماستر، وبتشجعهم انهم يروحوا يعيشوا معاها.

- والله يا نونو هي مش صغيرة.. وغير كده هي حرة في حياتها، الواحدة لما بتفكر في الجواز عند سن معين، بتكون حريتها في المقام الأول وتحط استقلاليتها قدام فكرة الارتباط. وبتكون النتيجة انها بتختار حياتها زي ما هي كده؛ لأنها صعب تتغير عشان حد في سنها ده.

قالتها شهيرة وهي تلوح لطفلتها من بعيد، ثم أردفت قائلة وهي تغمز بعينها:

- بس الجواز والاستقرار له طعمه برضه.. زوج وأولاد وحياة تانية خالص..

- آه يا شقية.. وحياة حلوة وحاجات دلع كده وكده..

خرجت ضحكة مصحوبة بنظرة أنثوية ماكرة من طرف عيني نوال..

- أيوه طبعًا حاجات دلع كده وكده.. أكدب عليكي؟

أجابتها شهيرة بدعابة صادقة وهي تغمز لنوال التي أردفت قائلة:

- أنا ما انكرش إن الشقاوة حلوة، بس حكايتك انتي وأشرف تشيِّب..

حاجة كده ولا في الأفلام العربي.

- آه يا نونو.. وأطلقت زفرة حارة من صدرها.

أطلقت نوال ضحكة أخرى أعقبتها بقولها:

- انتي جوزك طيار وانا جوزي قبطان.. يعني ما بيصدقوا يرجعوا البيت.. اللهفة اللي بشوفها في عين سيف أول ما يدخل البيت تساوي الدنيا وما فيها والله يا شوشو.

- خلاص بقى.. قفلي الكلام ده أحسن خلصوا صلاة وجايبين علينا.

قالتها شهيرة وهي تفتح ذراعيها تجاه حسن محتضنة إياه وهو يخبئ وجهه في صدرها ويغمض عينيه..

- حرمًا يا حبيبي..

- أي حبيب فينا؟

داعبها أشرف باسمًا وهو يضع نظارته الشمسية عن عينيه، وهو يتمدد على «شيزلونج» بجوار زوجته.

- لا يا سيدي.. انت هتمدد ولا إيه؟ أنا وقعت من الجوع، نطلب الغدا بقى كفاية.

أدار سيف الدين بصره في المكان بحثًا عن الجرسون الذي أتى مهرولاً عند إشارة من يده.

2001 – 1991

سوهاج

- يا أمي كفاية، أنا مش مهاجر بلاد بره.. ده انا رايح أسيوط.. يعني كلها ساعتين زمن.

- يا ولدي لازم تاخد زوادة معاك عشان تذاكر زين.. ده انت بتقعد بالتلات شهور لغاية ما أشوفك تاني..

- أول ما اخلص امتحانات نص السنة يا أمي..

لم تلتفت أرملة الشيخ كامل إلى وحيدها حسين وهي تضع أقراص الفطير فوق بعضها البعض في قاع السَبَت الخوص، وتطمئن على وضع البيض وسط علبة صفيح مملوءة بنخالة الدقيق بجوار بلاص العسل الأسود، وآخر من «المش» ذي الرائحة النفاذة.. وأغلقت السبت ببشكير سميك ملفوف على حوافه بإحكام. ونهَض حسين بعد أن رص ملابسه في الحقيبة الجْلدية، واحتضن والدته محنية الظهر، المتشحة بالسواد دائمًا كعادة الأرامل من نساء الصعيد، مقبِّلاً رأسها ويديها والدموع تنساب من عينيها..

- بلاش كل ما أسافر تبكي يا أمي.. أنا بحزن لما أشوف دموعك الغالية

دي..

- دموعي ما تلاقيش أغلى منك يا ولدي..

قالتها العجوز وهي تحاول أن تحمل السبت الخوص إلى بوابة الدار الخشبية، ولكن يد حسين القوية انتزعته من يدها برفق، مغادرًا تشيعه دعوات أمه بالستر والأمان.

قبع حسين على شاطئ النيل الشرقي لقرية «أولاد يحيى الحاجر» بسوهاج، في انتظار معدية عم سليم، لتنقله إلى البر الغربي ليستقل القطار المتجه إلى أسيوط، وبين حقيبة ملابسه الموضوعة عن يمينه والسبت الخوص القابع على يساره، وتحت شمس الصعيد الحارقة في أول النهار، تذكر حسين والده الشيخ كامل، ذلك المزارع صاحب الشهادة الأزهرية، ذائع الصيت والسمعة الحسنة في نواحي البلاد، ومقرئ القرآن في سرادقات العزاء من دون مقابل. لم يتخلَّ عن أرض أبيه وجده، ورفض الوظيفة الميري وأفنى حياته في الحفاظ عليها وزيادة رقعتها، حتى جاء صباح اليوم الموعود، وانشق نوره مع صرخة مكلومة في جنبات الدار، التي انتزعت حسين من فراشه مهرولاً إلى أمه، يرتمي في صدرها باحثًا عن الأمان لطفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، لم يدرِ ماذا يدور في بيت أبيه، وتلك النسوة يولولن ويعددن، وأبناء عمومته الأكبر سنًّا يأخذونه إلى دارهم، مشفقين على الصغير الذي لا يعرف معنى الموت، لكنه يشعر باختفاء

أمنه باختفاء أبيه، الذي أخذ يسأل عنه ولم يجد إجابة إلا في العيون المحيطة به، تملؤها الحسرة على يتمه المبكر، على الرغم من اعتناء أعمامه به وبوالدته، وزراعة الأرض لهما مقابل إيجار سنوي يضمن لهما حياة كريمة، إلا أن إحساس اليُتم رافقه حتى إن أصبح شابًّا يخطط لمستقبله بعد دراسته في كلية الشريعة والقانون.

لم ينتبه لصديق عمره، رشدي البايض، وهو يسحب بخفة سبت زوادته من جواره متجها إلى خلف شجرة نبق ضخمة عتيقة، مخفيًا إياه خلف جزعها الغليظ، ثم رجع مرة أخرى صائحًا كأنه قد وصل للتو:

- وصلت بدري يا معلم..

التفت حسين إلى مصدر الصوت الذي لا يخطئه أبدًا وهو يبتسم في وجه صاحبه:

- القطر ما بيستناش حد يا رشدي..

وتعانق الصديقان بعد أن وضع رشدي حاجياته.. وكأن شيئًا لم يحدث.. بجوار حقيبة حسين الذي انزعج فجأة عندما لم يجد سبته وأخذ يتلفت يمينًا ويسارًا متوترًا، ولم يرد على سؤال رشدي المستفهم عن سبب انزعاج صديقه ببراءة واندهاش مصطنعين.. وهرول حسين باحثًا عمًّا فقده بطول شاطئ النيل وبين الشجيرات النابتة عليه، وأخذ نفسًا عميقًا وهو ينظر إلى رشدي باسمًا بعد

أن وقع بصره خلف جزع الشجرة، قائلاً:

- مش هتبطل حركات العيال بتاعتك؟ يا ابني احنا كبرنا خلاص.. كلها سنة ونتخرج.. عيب لما الناس تشوف المقالب بتاعتك دي.

واقتربت معدية عم سليم المراكبي من الشاطئ وهرول يحيِّي حسين ورشدي باحترام وإجلال صادق حاملاً حقائبهما إلى سطح المعدية التي بدأت تمخر مياه النيل إلى البر الغربي منه.

- سيبك من الناس وكلامهم.. انت كان شوية وهتبكي كيف العيال الصغيرة.

قالها رشدي وهو يهتز من الضحك غير عابئ بوجود المراكبي المنهمك في توجيه المعدية التي بدأت في الاقتراب من الشاطئ بعد قليل، وقد غادرها راكبوها إلى محطة القطار في بندر سوهاج مسرعين بعد أن تعالى صوت نفيره على الرصيف، وصعد الاثنان إلى جوفه واضعين أشياءهما على الرف الخشبي أعلى مقعديهما في العربة شبه الخاوية إلا من أفراد مبعثرين في جنباته، وأخرج رشدي علبة سجائره وبدأ في إشعال إحداها وهو ينظر من النافذة المحطمة إلى مساحات خضراء شاسعة على امتداد البصر..

- والله بلدنا حلوة قوي يا حسين.. الناس هادية وفي حالها.. مش زي البندر بزحمته ودوشته.

التفت إليه صديقه الذي ارتسمت ابتسامة على وجهه وهو يقول بمكر بدا على صوته بعد أن ضرب كتف رشدي بقبضة يده:

- طبعا حلوة.. بس مش أحلى من أسيوط.. وغادة بتاعة أسيوط..

انتفض رشدي ملتفتًا إلى حسين قائلاً كمن ينفي تهمة مشينة عن نفسه:

- لا طبعًا.. بلدنا أحلى مليون مرة.. وأطرق هنيهة ثم أردف وهو يسرح بعينيه كمن يستحضر صورة من خياله.. هي غادة حلوة آه.. وزي طاجن الفطير باللحمة آه.. وما تقدرش تقاوم عينيها الخضرة اللي زي البرسيم آه.. وصوابع إيديها اللي زي البامية البراني آه.. وشعرها الأسود الناعم زي ديل جاموسة عم مختار آه.. وصدرها المدور زي أرانب عشة بيتكم آه..

وأخذ رشدي يعدد وصفه لكل تفصيلة من جسد غادة إلى أن أنهى تشبيهه بأصابع رجليها.. ثم سكت شاردًا في الفضاء الأخضر أمامه، وقد احترم حسين شروده وهو يكظم ضحكة تلح عليه في الخروج دون جدوى.. نظر رشدي إلى وجه حسين متسائلاً ببراءة واهتمام:

- انت متخيل إن غادة ممكن تعمل في الحمام زي الناس ما بتعمل يا حسين؟

انفجر حسين ضاحكًا وقد احمر وجهه الأسمر لافتًا انتباه القلة الموجودة بعربة القطار إليهما، ومع دخول الكمساري، ووقوفه على رأسي الصديقين،

توقف حسين عن الضحك وأخرج من جيبه نقودًا طالبًا أن يقطع تذكرتين إلى أسيوط. لم يهتم رشدي بالواقف على رأسيهما، بزيه الأزرق الباهت من تعاقب السنين عليه، والذي يدون في دفتره بيانات الحجز، وكرر السؤال الفج مرة أخرى بلهجته الصعيدية مستفسرًا عن احتمالية أن تحتاج محبوبته إلى الدخول إلى دورة المياه لتقضي حاجتها كما يفعل البشر! وعندها توقف الكمساري عن الكتابة في دفتره الأحمر الصغير مشدوهًا، ونظر إلى رشدي متفحصًا وجهه، وقد فتح فاهه باستغراب واشمئزاز في الوقت ذاته، ولم يدعه رشدي يكمل اندهاشه بقوله وهو ينظر إليه ببلاهة:

- أصل انت يا عم الحاج ما شوفتهاش واصل..

وعند هذا الحد تبدلت ملامح حسين إلى التجهم زاعقًا في صديقه أن يصمت، معتذرًا للكمساري ذي الوجه العابس، بعد أن ناوله ورقتين حمراوين وانصرف لباقي الركاب.

- مش عاوزك تفتح خشمك لغاية ما نوصل.. انت فاهم؟

قالها حسين بغضب وقد أخرج منديلاً قماشيًا واضعًا إياه على وجهه، وغطَّ في النوم حتى وصولهما إلى أسيوط.

أسيوط

- كل واحد يصور الكارنيه بتاع الكلية والبطاقة الشخصية أربع صور، وتكتبوا كشف بأساميكم عشان أسلمهم لأمن الدولة.. ومفيش حد غريب يبات عندكم في الشقة.. دي تعليمات أمن الدولة السنة دي.

خرجت الكلمات كأوامر صارمة، مصحوبة برذاذ من اللعاب المتناثر من فم الحاج سعدي.. صاحب الشقة التي يستأجرها سنويًّا كل من حسين كامل، ورشدي البايض، ومحمد الطبجي، وأدهم اللبروس.

- بس لسه محمد وأدهم ما وصلوش من بلادهم يا عم الحاج..

قالها رشدي محاولاً تقليد محدثهم، الذي لم يلحظ كمية الرذاذ المتجهة إلى وجهه.

- ما خبرش.. لازم تخلصوا الورق ده عشان ألحق أبعت نسخة للأمن العام والقسم ومباحث الآداب وأمن الدولة.. دي تعليماتهم يا ولدي..

- وليه الدوشة دي يا حاج سعدي؟ إحنا بقالنا معاك أربع سنين وما حصلش حاجة وحشة لا سمح الله.. وغير كده، محمد وأدهم الكليات بتاعتهم

يوم السبت الجاي، يعني قدامنا سبوع تاني..

- والله يا ولدي أنا ما خبرش إيه الأوامر العجيبة دي.. هما بيقولوا عشان لما ينزلوا تفتيش على بيوت الطلبة، يبقى عندهم علم بالمتسجلين ويقدروا يقبضوا على الطلبة بنوع الإرهاب..

- خلاص يا عم الحاج.. أول الأسبوع هيبقى كل شيء جاهز.. ما تقلقش واصل..احنا ولاد ناس برضك.. وبنعرف الأصول وما نعملش حاجة فيها ضرر ليك.

أجابه رشدي بنفس الطريقة الهزلية، ونظرات حسين مصوبة تجاهه في حنق خفي..

- الله يبارك فيكم يا ولادي..

انصرف الحاج سعدي بعد أن دفع له حسين إيجار الشقة ذات الغرف الأربع بالكامل، كما هو متفق عليه كل عام، إلى أن يحضر باقي زملائه ويدفع كل منهم المصروف الشهري كالعادة. ونهر حسين صديقه رشدي مستنكرًا سخريته من الرجل العجوز، مطالبًا إياه بالكف عن ألاعيبه الصبيانية، مذكرًا إياه بأنه سيصبح في يوم ما كبيرًا مثله، وربما يسخر الآخرون منه كما يفعل هو الآن. لم يلتفت إليه رشدي وهو يتجه إلى غرفته، يرتب ما فيها وهو يغني «هاقابله بكره»، في إشارة إلى لقائه محبوبته غادة.. وانصرف حسين إلى غرفته هو الآخر

مبتسمًا من هدوء رشدي الذي لا يعير أي شيء انتباهًا.

بعد أن انتصف الليل بقليل.. انفرج باب الشقة ذو الضلفتين الخشبيتين عن شابين، أحدهما تنساب خصلات شعره الذهبي على جبهته، ويحمل أنفه نظارة طبية رفيعة، يظهر ثراؤه على ملابسه الأنيقة ذات الألوان المبهجة في تناسق ينم عن ذوق رفيع، يحمل في يديه حقيبة سفر كحلية اللون، وفي اليد الأخرى كرتونة ثقيلة يساعده في حملها الشاب الآخر مكتنز البدن، قصير القامة، ذو الشعر المجعد، دلف الاثنان إلى داخل الشقة في هدوء عند انتصاف الليل، ووضعا حاجياتهما في منتصف الصالة، وتسحب ذو الشعر المجعد بهدوء إلى غرفة حسين التي يفتح إحدى بابيها على غرفة رشدي، ووقف في منتصف الغرفة وقد أخرج من جيبه صاروخًا من البارود، الذي يستخدمه الأطفال في الأعياد، مشعلاً إياه وتركه يسقط من بين أصابعه وانسحب بسرعة وخفة إلى الصالة مرة أخرى، وبعد ثوانٍ قليلة انفجر الصاروخ زاعقاً في أرجاء الشقة، أعقبها صراخ رشدي وحسين وهرولتهما إلى الصالة مفزوعين، وقد تفاجآ بوقوف كل من أدهم ومحمد أمامهما:

- الحركة دي ما يعملهاش غيرك يا لبروس، ربنا رزقنا بطفلين في الشقة.. انت والبايض اللي جنبي..

قالها حسين بلكنته الصعيدية وهو يحتضن محمد ثم أدهم، وقفز رشدي

مسلمًا عليهما متسائلاً عن سبب قدومهما قبل ميعاد كلياتهما:

- بابا وماما سافروا لندن عشان التحاليل الدورية بتاعتهم، وانا زهقت من القعدة في مصر، وشلة بهوات الدقي بقيت مملة، اتصلت بأدهم واتفقنا نسافر لما عرفنا ميعاد كلياتكم.

أجابه محمد بصوت هادئ ينم عن رفاهية تعوَّد عليها رفقاء السكن. أعقبها حسين قائلاً بلهفة:

- أخبار مدام شهيرة إيه دلوقت يا محمد؟

- الحمد لله.. حالتها مستقرة، أونكل سيف وشيماء مسافرين إسبانيا معاها يوم السبت الجاي..

- إشمعنى إسبانيا؟

- طنط فيفي حجزت ميعاد في مستشفى كبير ومتخصص في أمراض الكبد.

- ربنا يشفيها ويقومها بالسلامة.

خرجت الدعوة ممزوجة بأسى واضح، وهمَّ بالسؤال عن حسن، لولا رشدي الذي بدا عليه الاستغراب قائلاً:

- بس إيش جابكم في الليل؟ انتو ما خايفينش تتعكشوا من الأمن؟

تعالت ضحكات محمد وهو ينظر إلى أدهم مكفهر الوجه، الذي بدأ في سب ولعن القطار الذي استقله من بورسعيد صباحًا لملاقاة محمد في محطة مصر،

ولكن الله أوقع عقابه عليه بعد أن سهر ليلة الوداع مع أصدقائه في ملهى ليلي، يحتسون البيرة ويدخنون الحشيش، وأخذ يحكي عن هذا الشاب الذي اعتلى الرف المخصص للحقائب أعلى المقعد الذي يجلس عليه، وغط في نوم عميق حتى فوجئ بمياه دافئة تنساب على رأسه وملابسه من الأعلى، ويلتفت ليعرف مصدر تلك المياه، فإذا بها آتية من بين ساقي هذا النائم أعلاه، والذي لم يشعر بنفسه وهو يبول على أدهم الذي أخذ في الصياح والسب لهذا الحيوان الذي لم يُعِره انتباهًا، بل التفت إليه وهو يفرك عينيه بقبضة يده ونزل من مكانه غير عابئ باحثًا في عربة أخرى من القطار عن رف آخر يكمل عليه باقي غفوته.

- ورجعنا البيت عشان يغير هدومه عندي بدل ما ريحته كانت فايحة نشادر..

قالها محمد وقد انخرط ثلاثتهم في الضحك، واستمر السهر حتى ما قبل الفجر، يتحدثون كل واحد عن أحواله وماذا فعل في إجازته، إلى أن نهضوا جميعًا ليغفوا قليلاً قبل الذهاب إلى كلياتهم لدفع المصروفات واستخراج الكارنيه وإتمام ما طلبه منهم صاحب السكن.

جنينة فردوس

- أنا رايح حديقة الفردوس.. بس والنبي يا حسين ما تقولش لأدهم، انت عارف انه هييجي ورايا ويغلس علينا.

نظر رشدي متوسلاً إلى حسين وهو يقف أمام المرآة يعدل من هندامه، ويضع مسحة فازلين على شعره، وعين حسين ترافقه بابتسامة وهو يتقافز في جنبات الحجرة ليتأكد من رضاه عن هيئته، ويغادر متجهًا إلى حديقة العشاق كما يطلق عليها طلبة جامعة أسيوط.

وعلى مقعد خشبي صبغت الشمس والبرد الواحة القديمة، كانت تجلس فتاة مرتدية زيها الأزرق المميز لبنات المرحلة الثانوية، وقد ظهرت مفاتن جسدها الغض بتقسيمات صدرها المنحوت، وخصرها النحيف، رفعت عينها تراقب الشاب القادم من بين أشجار السنط العتيقة، متجهًا إليها وهو يحدق فيها من مسافة بعيدة، حتى إن وصل إليها، جلس بجوارها محتضنًا بكفيه يدها الصغيرة وكمشهد عاطفي من فيلم خمسيني الإنتاج، تأمل وجهها بتسبيلة من عينيه قائلاً:

- وحشتيني يا غدغود..

- وانت كمان يا ريري..

قالتها غادة وعلامات الخجل بادية على وجهها الأبيض، وتلاصق الاثنان يبثان حرارة الأشواق والحب لبعضهما البعض، غير عابئين بما يدور في محيطهما من مناظر مشابهة لحالهما.. إلى أن أتى حارس الحديقة يراجع تذاكر الدخول، في حجة ليخبر بها المراهقين الصغار بوجوده، وابتزازهم ليدفعوا له مرة أخرى، فقد تعود مرتادو الحديقة على سماجته ونظراته الوقحة إلى فتياتهم، اللاتي تشيح كل واحدة منهن ببصرها بعيدًا عن عين الحارس الفجة..

- ناوي على إيه بعد السنة دي يا روحي؟

قالتها غادة وهي تنظر إلى الأرض في خجل، وخيالات ابتسامة تظهر على وجهها..

- إن شاء الله هسافر على مصر.. وأتدرب في مكتب محامي من بلدنا..

أجابها رشدي متجاهلاً امتعاض غادة من إجابته، التي لم تعلق على حديثه سوى بالصمت، ساحبة كفها من بين يديه وهي تضعها بجوارها.

- إلا لو ربنا نفخ في صورتي وقبلوني في النيابة العامة أو حتى الإدارية، تبقى الدنيا زهزهت معايا قوي..

لاحظ رشدي سكوت محبوبته الطويل، والتفت إليها بعد أن أدرك غباء

إجابته عن سؤالها، واستدرك بسرعة محاولاً تخفيف التوتر الظاهر على غادة قائلاً:

- بس قبل ده كله هشوف موضوع التجنيد.. وبعد كده أتقدم لواحدة زي القمر عشان أطلب إيديها من أبوها.. ولو وافقت تبقى طاقة القدر اتفتحتلي..

اصطبغ وجه غادة بالاحمرار، وانفرجت أساريرها مرة أخرى وهي تلاحظ ابتسامة رشدي لها، وأخذ الاثنان يحلمان بخطط حياتهما بعد أن ينهي رشدي دراسته ويتقدم لغادة، وبدأ شريط حياتهما المستقبلي يمر من أمامهما وهما يضعان طريقة عيشهما في حلم ضعيف ساذج.

إبليس

- أخبار حسن إيه؟

تساءل حسين وهو يمد يده لتناول حبة ليمون مخلل، أتى أدهم ببرطمان منه كعادته.

- كويس الحمد لله.. لسه في سنة تالتة وباين عليه مش ناوي يعدي السنة دي كمان.

أجابه محمد وهو يقذف قطعة خبز تحمل بعض حبات الفول المدمس إلى فمه وقد جلس بجوار رشدي المنهمك في حشر ورقات الجرجير الأخضر في جوفه المملوء ببيضة مسلوقة لا يستطيع بلعها، وكف أدهم يده عن الطعام وهو يقول بحذر واضح على صوته:

- السبب والده اللي ضغط عليه عشان يدخل كلية الطب.. هو كان نفسه في كلية الإعلام وادي النتيجة.. إحنا قربنا نخلص دراستنا ونتخرج وهو مغروس في سنة تالتة..

- أنا متأكد برضه إنه لما يتخرج هيشتغل في الإعلام.. أنا عمري ما شفت

واحد في كلية طب ويلاقي وقت يروح ياخد كورسات في الجامعة الأمريكية في الصحافة والكمبيوتر!

قالها محمد وهو يرمق رشدي شبه الغائب عن الوعي بجواره وقد امتدت يده مشيرة إلى الدورق الزجاجي الموضوع بجوار أدهم الذي أسرع وناوله له في لا مبالاة كمن تعوَّد على ذلك مرارًا.. وبعد أن سكب رشدي نصف الدورق مرة واحدة في جوفه قال كمن لم يصبه شيء:

- والله المرة الوحيدة اللي زرناكم فيها في مصر وقعدنا معاه، عجبتني أفكاره.. هو متزن قوي، بس حالم شويتين وتحس وهو بيتكلم انك بتسمع عالم فلسفة أو سياسة..

قذف رشدي بيضة أخرى في فمه غير عابئ بالنظرات المحيطة به وقد تملكهم الخوف من اختناقه كل مرة.. وقد زعق فيه حسين مشاكسًا له:

- خلي بالك يا رشدي ان أدهم لسه ما اتخرجش.. يعني مش هيقدر يسعفك لو الجحروتة دي وقفت في زورك.

تعالت الضحكات وهم متحلقون حول السفرة لتناول إفطارهم قبل ذهاب ثلاثتهم إلى جامعة أسيوط، يغادرهم حسين أولاً متجها إلى جامعته الأزهرية.

وينفصل الثلاثة في الحرم الجامعي: يتجه أدهم إلى كلية الصيدلة ومحمد إلى كلية الهندسة ورشدي إلى كلية الحقوق. تمضي أيامهم متشابهة إلى حد

كبير، فيخرجون سويًا ويرجعون فرادى، وكعادة يوم الجمعة من كل أسبوع.. يخرج الأربعة في زيارة أصدقائهم بدءًا من غروب الشمس ويختتمون السهرة بالذهاب إلى السينما لمشاهدة بروجرام الأفلام الثلاثة، يرجعون بعدها إلى الشقة في منتصف الليل..

صدح المؤذن لصلاة الجمعة من المسجد القريب لشقة الطلبة، وبدأ الإمام في خطبته الزاعقة، متوعدًا المنصتين له بعذاب القبر والجحيم المنتظِر للآثمين والعاصين لتعاليم الله تعالى، وقد افترش البعض الحصير البلاستيكي في الشارع تحت شمس الظهيرة بعد أن امتلأ المسجد برواده من طلبة الجامعة، الذين يتكدسون أمام محل «عم بخيت السماك» في شارع الجمهورية ليتسلموا وجباتهم من السمك المشوي المعتادة بعد الصلاة الأسبوعية.

- عاوزين نروح لحاتم النهارده..

التفت أدهم إلى رشدي باشمئزاز كمن يشتم رائحة كريهة قائلاً:

- أنا بتخنق لما بروح هناك.. الواد حمدي ما بينزلّيش من زور.. تحس انه لطخ..

- أنا سمعت والله أعلم إنه مرشد لأمن الدولة.. أول سنة في الكلية اتفقوا معاه إنه ينجح صافي من غير مواد.. بس يجيبلهم أخبار زمايله في السكن..

- ووافق الندل انه يفتن على اصحابه اللي واكلين وشاربين ونايمين مع

بعض؟

بدت علامات الدهشة والغضب على وجه محمد مستنكرًا ما قاله حسين. وأجابهم رشدي وقد امتلأ فمه بالطعام:

- يا ابني بتوع الأمن دول ليهم طريقة يقنعوا بها إبليس إنه يشتغل معاهم..

- طيب فضوها سيرة.. وبلاش زيارة حاتم خالص.. نوفر وقت الزيارة عشان أروح سنترال المحطة أكلم بابي ومامي..

رجع محمد إلى هدوئه المعتاد ونعومة حديثه، وقد أثارت كلمة بابي ومامي حس الدعابة فجأة عند رشدي الذي أبى أن يترك الفرصة ليشاكس محمد قائلاً وهو يقلده في هدوئه:

- بابي ومامي؟! انت في أسيوط يا عم الحاج.. يعني ما ينفعش تقول الكلام البحراوي بتاعكم ده واصل عندينا.. لازم تقول الحاج والحاجة أو أبوي وامي.. اخشن واسترجل.

وأطرق صامتًا لبرهة يلتقط أنفاسه ثم أكمل وهو يتفحص وجوه السامعين له وقد اعتلت الضحكات وجوههم:

- انت من ساعة ما سكنت معانا وانا عاوز اعرف إيه اللي جابك أسيوط.. ما كنت دخلت جامعة القاهرة أو عين شمس! وتبقى جنب بابي ومامي..

تعالت ضحكات ثلاثتهم من تمثيل رشدي لطريقة حديث محمد الذي لم يستطع أن يجيبه من تلاحق أنفاسه اللاهثة.. ثم أردف بعد أن هدأ قليلاً محاولاً بدوره رد الدعابة لرشدي بلكنته الصعيدية وخروج الحروف مغلظة خشنة قائلاً:

- ما كانش ينفع أحول إلا بعد أول سنة عشان المجموع يا ناصح.. بس بعد ما عاشرت القوم اللي زي حالاتك حبيت العيشة معاكم.. دنيا تانية وناس تانية، وعيشة تانية.. فهمت؟

- دي العيلة كلها فلاسفة يا عم محمد.. انت وولد عمك حسن..

قالها حسين وهو يداعب صديقه الذي التفت إلى أدهم وهو يرفع الأطباق من على منضدة تتوسط الصالة، متجهًا إلى المطبخ وهو يقول:

- يا بختك يا سيدي.. فرقت معاك نص في المية بس دخلت الكلية اللي عاوزها.. أنا فرقت معايا تلاتة في المية وجابتني صيدلة.. وخرجت زفرة من صدره.. من بورسعيد لغاية أسيوط.

- ومالها أسيوط يا بتاع البحر المالح؟!

سأله رشدي وهو يساعده في رفع الأطباق:

- أنا ومحمد أول ما ركبنا القطر كنا فاكرين اننا هننزل في محطة بين

الزرع والقصب، والكمساري هيرمي الشنط على الطين ونمشي وسط البرسيم، والجامعة دي عبارة عن شوية جدران من البوص وسقفها خوص ونخل وخلاص..

ما صدقناش نفسنا واحنا نازلين على الرصيف والمدينة اللي انتو عايشين فيها..

تلقف حسين الحديث وهو يمسح زجاج المنضدة من بقايا الطعام بقماشة مبللة بالماء والصابون لتخفي رائحة السمك المشوي، قائلاً وقد ظهر الأسى على صوته:

- المشهد اللي بتحكي عليه ده تلاقيه في بلدنا.. المحطة وسط القصب والبرسيم اللي الجاموسة بترعى فيه، والساقية الدايرة مربوط فيها الطور.. ده بلدنا لولا الإرهاب.. الله يمسيه بالخير.. الحكومة ما كانتش هتفكر انها تركب عمدان نور وتسفلت الطريق الرئيسي.. ده حتى النقطة بنوها بالأسمنت المسلح عشان البهوات الظباط يبقوا في أمان.

- يعني الإرهاب في الصعيد له فايدة على الناس.. ومصيبة على الحكومة..

قالها محمد وهو يغسل يديه في الحوض المتوسط الطرقة الطويلة الفاصلة بين الحمام والمطبخ من ناحية، والصالة والباقي الغرف من الناحية الأخرى..

- يا عم البرنس لولا الحوادث اللي بتحصل ما كانوش عرفوا الوزرا أو

اللواءات ولا حتى الريس طريق الصعيد ده واصل.. افهموا بقى..

خرجت الكلمات من فم رشدي بطريقته الساخرة المسرحية، واتجه إلى البلكونة ليدخن هو وأدهم.. الحامل لصينية الشاي.. وبعدها خلد الجميع إلى قيلولة استعدادًا لسهرتهم الأسبوعية.

2011 – 2001

زائر الفجر

- اتصل بحسن وخليه يقضي معانا إجازة نص السنة في البلد يا محمد..

قالها حسين باستعطاف وهو ينظر إلى رشدي خلسة طلبًا لمعونته في إقناع محمد بدعوته لابن عمه، بعد أن اتفقا على دعوة أدهم ومحمد ليسافرا معهما إلى قريتهما ليقضوا جميعًا أول أسبوع في إجازة نصف العام.

- أي والله يا محمد.. إحنا فاضل على الامتحانات يومين وبعد كده نسافر كلنا مع بعض.. إيه رأيك؟

أكد رشدي دعوة صديقه حسين وأخذ الاثنان في الإلحاح حتى وافقهما محمد قائلاً:

- أنا هتصل بيه آخر النهار واشوف ظروفه إيه..

واتفق الأربعة على قضاء نصف الإجازة في الصعيد، يعود بعدها الباقون إلى بلادهم استعدادًا للنصف الثاني من العام.. وفي المساء أتى محمد بالخبر اليقين وزف بشرى موافقة حسن على القدوم ليشاركهم إجازتهم، ولكن بعد ثلاثة أيام لانتهاء آخر يوم في امتحانه طبقا لجدول جامعته..

- مفيش مشكلة.. نستناه في أسيوط اليوم اللي فاضل ونتحرك كلنا للبلد إن شاء الله.

ظهرت الحماسة على رشدي وهو يمسك بيده عدة ورقات مكتوبة باليد لأسئلة وأجوبة لامتحانات سابقة لا تخرج منها الامتحانات اللاحقة كما يفعل كل عام. وتصيب الأقدار حظه وينجح بتقدير جيد جدًّا..

- عاوزين ننزل نصلي الفجر جماعة في المسجد.. عشان ربنا يكرمنا الترم ده..

- انت عاوز تكدب على ربنا يا رشدي بحركة قرعة زي دي؟! يا راجل عيب عليك!

استنكر أدهم فكرة رشدي، وأعقبها حسين بقوله:

- انت عارف إن كل جامع فيه مرشد لأمن الدولة؟ يعني مش عاوزين قلق.. وربنا يا سيدي عالم بالنوايا.

- يا سعادة البيه مش هنخسر حاجة لو نزلنا صلينا في الجامع.. يعني إحنا ولا بدقون ولا لابسين جلاليب قصيرة وتحتها بنطلونات بيضا..

رد عليهم رشدي في محاولة لإقناع حسين وأدهم المنتظرين لإجابة محمد.

- انتو عارفين إن الظباط دلوقتي لما بيفتشوا الطلبة في الشارع بيعملوا إيه؟

أنصت الثلاثة بانتباه لما سيقوله محمد الذي أكمل:

- يفتشوا في الجيوب والمحفظة.. تخيلوا لو طلعت في إيده صورة إباحية أو سيجارة بانجو يعمل نفسه مش واخد باله، أما لو لقى مسواك أو مصحف صغير أو سبحة أو حتى سورة ياسين في المحفظة يشد الواحد على القسم ويعمل محضر يثبت فيه إنه لقى مع المشتبه فيه عدد واحد مسواك طوله خمسة سنتيمتر ومصحف بغلاف جلد أخضر بسوستة، حجمه سبعة في عشرة سنتيمتر، وسبحة خشب عدد حباتها تلاتة وتلاتين.. تخيلوا الهبل وصل لغاية فين!

ضحك الأربعة بمرارة من دعابة تحدث يوميًا في تلك المناطق المكتظة بالطلبة من كل حدب وصوب.

ومع ارتفاع صوت المؤذن لصلاة الفجر، أغلق كل واحد منهم كتابه ونهض ليتوضأ، وخرج الأربعة إلى المسجد الصغير المجاور لشقتهم، ودلفوا إلى الداخل مفاجئين خمسة من رواد المسجد المنتظمين، ذوي اللحى المخضبة بالاصفرار، والجلاليب القصيرة، إلا من شخص تختلف هيئته عن الباقين، حليق الذقن، ذي شارب كث يأخذ مكانه بين الأنف الغليظ والفم المختفي تحت الشعر الكثيف، يستند بظهره على الحائط في آخر المسجد يرقب أربعة من الطلبة الوافدين لأول مرة وهم ينظرون إلى بعضهم البعض كمن يلومون أنفسهم على الانصياع لفكرة رشدي الحمقاء..

وبعد أن ركع المصلون ركعتي السنة، انتظروا في صمت تام إقامة الصلاة، لكن انتظارهم طال وهم يشاهدون أصحاب اللحى يمسك كل واحد منهم بمصحف ويهز رأسه كمن يقرأ في حلقة ذكر، وأخذ أدهم ينظر إلى ساعته كل حين التي أشارت عقاربها إلى طول مكوثهم في المسجد لقرابة نصف الساعة، ونظرات حسين ومحمد مصوبة إلى رشدي منكس الرأس يتجاهل لوم العيون، إلى أن نهض أحد أصحاب الجلاليب القصيرة معلنًا إقامة الصلاة.. وانتظم صف وحيد في المسجد شبه الخالي، يؤمهم شاب ضعيف الجسد أبيض البشرة يرتدي نظارة طبية سميكة، يعتمر «طاقية» صوفية يشتهر بارتدائها فلاحو الوجه البحري، وبدأ في الصلاة التي انتهت بعد نصف ساعة آخر، تخللها صوت محمد وهو يصحح بعض الآيات للإمام الذي أخذ يخطئ في بعضها.. إلى أن انتهت الصلاة، وتنفس الخارجون من المسجد الصعداء وقد تملكتهم الدهشة والحنق عند رؤيتهم ضوء النهار وهم ينظرون في غضب وغيظ إلى بعضهم البعض دون كلمة.. وهرولوا مسرعين إلى سكنهم، تبعهم ذلك القابع في آخر لمسجد، الذي لاحظه أدهم قائلاً:

- إحنا اتعلِّم علينا يا جماعة.. الراجل المخبر بتاع الجامع قاطرنا لغاية البيت.

- يا سيدي مفيش مشكلة.. إحنا ولا لينا في الطور ولا في الطحين.

قالها رشدي محاولاً طمأنة أصدقائه دون جدوى؛ فقد خرجت الكلمات

واهنة كاذبة، لم يصدقها هو نفسه، فأطبق الصمت.

- فضوها سيرة.. وخلينا نجهز عشان الامتحان.. ده آخر يوم وربنا يكمله على خير.

خرجت الكلمات من فم حسين وهو يلوم نفسه على موافقته لفكرة رشدي، واتجه إلى غرفته ليراجع بعض الملاحظات المدونة في كتابه قبل أن يتوجه كل منهم إلى لجنته في كلياتهم المختلفة.

انتصف النهار، وبدأ الساكنون في الرجوع فرادى الواحد تلو الآخر، وقد انفرجت أساريرهم ممنين أنفسهم بالنجاح كالعادة، واتفقوا أن يغفوا قليلاً ليعوضوا سهر لياليهم في الأيام السابقة، بعدها يتجهون إلى مطعم البركة بوسط البلد، ليحتفلوا بانتهاء امتحاناتهم ويتناولوا ما دسم من الطعام، بعد أن احتل البيض والفول والجبن مائدتهم طيلة الأيام السابقة. يعقبونها بدخول السينما قتلاً للوقت، يرجعون بعدها إلى الشقة ليجهزوا حقائبهم ويستسلموا للنوم حتى الصباح في انتظار حسن.. القادم من القاهرة.

أغلق كل واحد منهم حقائبه، وحاولوا النعاس قليلاً قبيل الفجر.. ولكن انتفض الأربعة على صوت طرقات عنيفة على باب الشقة المظلمة، وإضاءة متحركة من مصابيح تحملها أيدٍ غليظة تظهر من خلف قطع الزجاج المسنفر بوسط الباب، هرول أدهم ليفتح الباب قبل أن ينخلع تحت طرقات الأيدي

والأرجل، وانفرج عن فوهة سلاح آلي مصوب تجاهه أجبره على الركون بجوار الحائط.. ودلف بعده رطل من الضباط والجنود المتشحين بالسواد، يظهر عدد من النجوم ونسر قابع على أكتاف بعض منهم، وقليل من المخبرين الذين انتشروا في الغرف كمن يعرفون مسبقًا ماذا يجب عليهم أن يفعلوا، وساد الوجوم على وجوه الشباب المتجمعين في الصالة كما أمرهم أحد الضباط.

- في حد غيركم تاني في الشقة؟

خرجت الكلمات ممطوطة هادئة من فم حامل النسر على كتفيه..

- لأ يافندم.. إحنا بس زي ما مكتوب في الكشف سيادتك.

أجابه حسين بثقة صادقة وهو ينظر إلى محدثه الذي تجاهل وجودهم جميعًا وهو يتلقف ورقة تحوي أسماء الساكنين وبياناتهم. وأخذ في النظر إليها متفحصًا وجوههم، كمن يحاول أن يطابق أوصاف وجوههم بأسمائهم، واتجهت عيون أربعتهم تلاحق ذلك الشخص الذي يرتدي بدلة أنيقة، ويضع سماعة في أذنه يتدلى منها سلك مخفي أسفل ياقتها السوداء، والذي لم ينبس بكلمة طيلة وجوده.. وإنما أخذ في الاقتراب من جدران الشقة كمن يستمع لما تخبره به.

أمسك العقيد بالورقة يتفحصها ثانية وقد طلب منهم أن يصطفوا بجوار الحائط حاملين بطاقاتهم الشخصية وكارنيهات الجامعة، وأخذ يقرأ اسم كل واحد منهم ويتفحص وجهه ويراجع ما هو مدوّن على البطاقة. خرج المخبرون

من الغرف بعد أن أفرغوا ما في الحقائب وسط كل غرفة، كسوق للملابس المستعملة، ثم فتشوا ما بين صفحات الكتب، وما هو مكتوب بخط اليد في أغلفتها.

- انتو إيه اللي مقعّدكم النهارده؟ انتو مش خلصتوا امتحانات؟

حك العقيد ذقنه وهو يتفحص وجوههم ثم ينتقل ببصره إلى باقي الضباط الذين أغمضوا أعينهم إشارة إلى اطمئنانهم لهذه الزمرة من الطلبة، ثم أشار إلى العساكر والمخبرين ليغادروا الشقة، وبمجرد أن أغلق أدهم الباب هرول حسين إلى غرفته وهو يزعق في زملائه:

- كل واحد يتأكد من فلوسه بسرعة.

وبالفعل.. صدق حدس حسين، فوجد محفظته خالية، وأيضًا محمد، وانطلق يقفز درجات السلم حتى إن وصل إلى باب العمارة، صوبت إليه فوهات الأسلحة بسرعة آلية وصوّت أحد الضباط يأمره قائلاً:

- ثاااابت.

رفع حسين يده في الهواء مستسلمًا، وقد تسمر مكانه، ولحق به باقي أفراد الشقة يتقدمهم رشدي قائلاً:

- فلوسنا اتسرقت يافندم..

حاول رشدي أن يخفي غضبه باصطناع المسكنة والاستغاثة اللتين لم

يستنسِغهما العميد الجالس في مقدمة سيارة الشرطة الزرقاء.. وقد هبط منها متفحصًا وجه رشدي بحنق، ثم أمر عساكره والمخبرين أن يصطفوا بجوار بعضهم البعض..

- اتسرق منكم كام إن شاء الله؟

أخبره محمد وحسين بما كان في حوزتهما من نقود، ثم نظر صاحب النسر إليهما قائلاً بتهديد:

- لو ما لقيناش الفلوس مع حد من العساكر أو المخبرين هلبِّسكم قضية..

- ولو طلعت الفلوس معاهم يا باشا؟

قالها أدهم متحديًا وهو يصوِّب نظره إلى الضابط المتجاهل لهم.. وأشار لأحد ضباطه بتفتيش العساكر والمخبرين، إلى أن وضع يده في بنطال أحدهم وأخرج رزمة من النقود لا يتناسب وجودها معه في هذا الموقف، وأخذ يعد الضابط النقود فوجدها مطابقة للمبلغ المفقود، فسلمها لأدهم بكبرياء وحدَّة وأشار إلى جنوده ومخبريه ليستقلوا السيارة مرة أخرى وكأن شيئًا لم يحدث..

وصعد المشدوهون إلى شقتهم، وعلامات الاشمئزاز بادية على وجوههم، وأثنى محمد على فراسة حسين الذي باغتهم بعد أن هدأت أنفاسه قائلاً:

- الأسبوع اللي فات، حملة كانت في شقة زميلنا زكريا، في شارع النميس، بعد ما فتشوهم ونشفوا دمهم، اكتشف زكريا وزمايله إن فلوسهم

اتسرقت.. بس ده كان تاني يوم.. راحوا القسم وقابلوا الظابط وحكوله اللي حصل.. رد عليهم ببرود وقالهم انه ما يقدرش يعمل حاجة لأن «الحرامي بشيلته»..

- برافو عليك يا حسين.. كان زمانًا دلوقت مسافرين على رجلينا لغاية البلد..

ضحك الأربعة وقد اتجه كل منهم ليعيد الكرّة ويرتب حقائبه المنتهَكة على الأرض من جديد، ليتجهوا بعدها إلى المحطة لاستقبال حسن القادم من القاهرة.

رحلة الشتاء

توقف القطار المقبل من القاهرة على المحطة الخالية من البشر للحظات كافية لنزول ركابه وحقائبهم على رصيف ترابي قصير.. وهو يحمل في جوفه الأصدقاء الخمسة بعد أن انضم إليهم حسن في محطة أسيوط.. وبمجرد أن هبط رشدي من الباب تحرك مرة أخرى بصافرته المزعجة كأنه يودعهم ساخرًا منهم.. سار أدهم وحسن خلف محمد وحسين وأمام رشدي، يحمل كل منهم حقيبته، يسيرون بين حقول البرسيم والقصب الممتدة على بُعد النظر.. حتى وصلوا إلى طريق أسفلتي أسود يفصل بين الحقول الخضراء التي يخترقها شريط القطار، وبين الشاطئ الغربي لنهر النيل يظهر على شاطئه الشرقي قمم الجبل الشاهق المرافق للنهر في أماكن كثيرة والمبتعد عنه في أماكن أخرى، هبط السائرون جرفًا ترابيًا إلى أسفل النهر وظهر لهم ما يشبه الميناء البدائي الصغير، ترسو عليه معدية متهالكة تنقل المتاع والناس والحيوانات إلى البر الغربي، اختصارًا للوقت المنقضي في السير إلى موقف السيارات الربع نقل، التي يُشحن فيها الجميع في صندوقها الخلفي كأشياء متشابهة، ألقى المراكبي بالتحية على حسين

ورشدي لمعرفته بهما متلقفا حقائبهما وحقائب ضيوفهما القادمين من البندر، وبدأ في التحرك دون انتظار امتلاء المعدية بالركاب إكراما للأستاذ حسين وأصدقائه الأغراب.

استغرقت رحلة عبور عرض النيل سبع دقائق، كانت بالنسبة لأدهم ومحمد وحسن من خيال لم يدركوا وجوده من قبل إلا في الكتب.. سكون تام يخترقه بانتظام صوت الهواء وهو يحرك سطح المياه المهتزة بحركة المعدية.. وسرحت عيونهم بين صفحة الماء وسماء تبتسم بسحاباتها البيضاء، يقبعون بين حقول خضراء خلفهم، وبرزخ أزرق وجدارية صفراء أمامهم، وصوت شهيقهم يسمعه المراكبي وكأنهم يريدون الاحتفاظ ببعض هوائه في صدورهم لأيام مقبلة سوداء، ينظر إليهم رشدي بابتسامته المداعبة لهم دائمًا، يتأمل حسن القابع أمامه بجسده الرياضي وشعره الأكرت القصير.. كقطعة من الليف خشنة أكلها الزمن، وهو يغلق عينيه تارة ويفتحهما فجأة تارة أخرى ينظر فيما حوله خشية أن يفوته شيء.

- عجباك بلدنا يا حسن؟

تساءل حسين وهو ينظر إلى مرافقيه بود ملحوظ، وأجابه حسن وهو يستنشق مرة أخرى الهواء بقوة إلى صدره، باسطًا ذراعيه على جانبي المعدية كمن يحاول لمس كل ركن فيها:

- بلادنا كلها حلوة يا حسين.. بس اللي يعرف يقدرها ويصونها.

- على مهلك على الهوا يا حسن.. سيب شوية لأدهم ومحمد..

التفت حسن إلى رشدي مبتسمًا، وهو ينظر إلى نقط سوداء في أعالي الجبل مندهشا، وقد لاحظ حسين حيرة صديقه.

- دي مغارات في بطن الجبل.. أشار حسين إلى تلك النقاط وهو يتحدث إلى رفاقه.. ممكن يكون فيها سباع أو وحوش أو قطاع طريق أو مغارات مهجورة ما فيهاش حاجة..

- ممكن لما نوصل أطلع أشوف؟

- مش عاوزين مغامرات يا حسن..

قالها محمد لابن عمه بحزم.. ثم نظر إلى الشاطئ الذي رست عليه المعدية، وترجل الراكبون عنها، يسيرون بحرص على لوحين من الخشب مشدودين بحبل من لحاء النخل المجدول، وأوصل المراكبي حقائبهم إلى أول الطريق المعبَّد بالحصى والحجارة الصغيرة، وحمل كل واحد منهم حقيبته كالسابق يتقدمهم حسين ويقبع في ذيلهم رشدي.

استيقظ ضيوف حسين ورشدي بعد غفوة طويلة يستريحون بها من ارتجاج القطار بهم طيلة الرحلة، واتجهوا إلى مكان أعده لهم رشدي بين

الحقول وأمام شاطئ النيل بعد أن تناولوا ما دسم من طعام أعدته لهم الحاجة فريدة والدة حسين.

- عاوز آكل قصب يا رشدي..

قالها حسن وهو يتوسط شلة الأصدقاء مفترشي الأرض السمراء تحت شجرة نبق عتيقة على ضفاف النيل الغربية.. وارتفعت قهقهة ساخرة من صدر رشدي وهو ينظر إلى حسن قائلاً:

- القصب ما يتاكلش يا حسن.. القصب بيتمص.. زي ما عندكم بحري ما ينفعش صعيدي يقول عاوز أشرب دندورمة.

نهض حسين إلى ما بعد الممر الضيق الذي يفصل شاطئ النيل وبداية الجبل الذي تتراص البيوت الحجرية على تلاله حتى وصل إلى أرضه المزروعة بالقصب، وفي ناحية أخرى بالفول الحراتي الأخضر، وأخذ في كسر بعض السيقان القصبية الطويلة، نازعًا عنها القش والهيش الجاف، ثم اتجه إلى أعواد الفول المجاورة، وأخذ يجني بعض القرون داكنة اللون في حجر جلبابه، ورجع إلى جلسة أصدقائه وقد بدأ رشدي يقلب بعود معدني بعض جمرات الفحم والخشب المشتعل ثم وضع بعض قناديل الذرة عليها وهو يقلبها على الجانبين، ثم التقط إحداها ورماها في حجر أدهم ثم أعقبها بأخرى في حجر حسن ثم

محمد، وأخذ الخمسة في نحت «كيذان» الذرة المشوية بتلذذ واضح عليهم وقد تلونت شفاههم بسواد الحطب المشتعل.

- أخبار الجامعة إيه في مصر يا حسن؟

سأله أدهم وهو يتناول عود قصب محاولاً كسره من المنتصف دون جدوى.. فتناوله رشدي وهو يضحك متمتما:

- انشف شوية يا خرع.

- السؤال يبقى يا أدهم: إيه أخبار مصر يا حسن، مش أخبار الجامعة في مصر.

أجابه حسن وهو يتناول قرنًا من قرون الفول الأخضر المتكومة بجواره، ثم أردف وقد شخصت عيناه مصوبهما إلى جمرات النار الساكنة أمامهم لبرهة، كمن يستجمع فكرة طرأت إلى ذهنه، ثم نظر إلى وجوه المتحلقين حول النار قائلاً:

- حد يعرف حاجة عن نظرية التماثل الزمني؟

- آآآه.. ابتدينا الكلام الجامد..

يضع محمد ما تبقى من قنديل الذرة المشوي عن يده جانبًا، وتربَّع باهتمام ونظر إلى ابن عمه منتظرًا ما سيقوله كأنه طالب في محاضرة لعالم جليل.. وقد أنصت الباقون وهم ينظرون إلى محدثهم بشغف بعد أن نفوا معرفتهم بهذه

النظرية الغريبة.

- فيه أحداث حصلت في بلدنا غيرتها بطريقة عنيفة وقوية.. يعني ثورة 19 وبعدها ثورة 52 وبعدها اغتيال السادات..

قاطعه رشدي قائلاً:

- بس يا حسن فيه أحداث تانية قوية أثرت في مصر.. زي حرب 73 وموت عبد الناصر ونكسة 67..

- طبعا يا رشدي.. بس أنا قصدي الأحداث اللي بتكون مش متوقَّعة وبتحصل كرد فعل لحاجة حصلت من جوه البلد.. يعني النكسة كانت حرب بين بلدين، وموت عبد الناصر كان طبيعي، بس الحركات اللي حصلت والناس اللي نزلوا الشوارع في جنازات في كل البلد هو اللي عمل الانطباع ده، و73 كانت حرب تانية.. أنا بتكلم عن أحداث داخلية صافية..

- تقصد إيه يا حسن؟

تساءل أدهم وهو يشعل سيجارة ناولها له رشدي المنصت باهتمام كباقي رفاقه.

- يعني بحسبة بسيطة ممكن نلاقي إن بين ثورة سعد زغلول سنة 19 وثورة عبد الناصر في يوليو حوالي 33 سنة، وبين ثورة 23 يوليو واغتيال

السادات 29 سنة، فلو استخدمنا الإحصاء اللي درسناها في ثانوي وعملنا متوسط حسابي هنلاقي إن المتوسط هو 31 سنة، يعني كل 31 سنة هتحصل حاجة تغير وضع مصر..

- يعني هتقوم حرب؟

اندهش محمد وقد فرغ فاه، وعلامات الانزعاج بادية على أدهم ورشدي اللذين أخذا في نفث الدخان بشراهة، أما حسين فقد ظهرت على وجهه ابتسامة وهو يحك طرف أنفه بسبابته قائلاً:

- تقصد يا حسن إن كل 31 سنة هتحصل ثورة أو انقلاب أو اغتيال.. أو على أسوأ الفروض هزة في حال البلد الداخلي..

انتفض حسن وهو يقف على قدميه كمن وجد شيئًا يمسك به، متحمسًا لما قاله حسين:

- بالظبط يا حسين.. هو ده اللي عاوز أقوله..

وأخذ يسير حولهم وهم جلوس يتابعونه بأعينهم وقد ظهر البريق في عينيه.

- يعني بعلم الإحصاء ونظرة مش عميقة قوي لحال البلد، والحرامية اللي فوق والحرامية اللي تحت نقدر نقول إن فيه حاجة هتحصل سنة 2012.. ممكن تكون انقلاب عسكري أو اغتيال الريس، أو ثورة شعبية.. والسبب هيكون

الكلمة اللي بتتردد.. تزاوج السلطة والمال.

- بس معنى كلامك ده زي النظرية ما بتقول.. إن سنة إن شاء الله 2043 هتحصل حاجة تانية.. وهكذا.

تساءل محمد وهو يحاول أن يستوعب ما قاله حسن، الذي أجابه قائلاً:

- أيوه.. وانا أتوقع إن الزلزال بتاع سنة 2043 هيكون بسبب تزاوج السلطة والدين.

- بس اللي شايف حال البلد دلوقت ما يقدرش يتخيل ان بعد ست سنين الراجل اللي سارح بعربية كارو وبيبيع شوية طماطم عشان يرجع آخر النهار بعشرة جنيه، وبيهرب من البلدية طول اليوم.. أو الموظف اللي مكلبش في مكتب وسط عشرين واحد وبياخد تلتميت جنيه في الشهر وبيقول الحمد الله.. ولا إحنا الطلبة اللي كل واحد خايف يفتح بقه أحسن يختفي تحت الأرض بتقرير من زميله في الجامعة.. أو حتى الممثلين اللي بياخدوا ملايين ومش هاممهم البلد ما دام عايشين أحلى عيشة.. ولا الصحافيين اللي الشيكات بتوصلهم كل شهر عشان يكتبوا ان البلد تمام.. أو الفرافير بتوع الإنترنت والجامعات الخاصة.. وكتيييير قوي..

- كفاية.. كفاية يا عم الحاج حرام عليك.. انت إيه.. ما صدقت اتفتحت فينا؟ إحنا عارفين ان كلنا بننضرب بالجزم وبناخد باقي الأكل الحامض من

العصابة.. بس كل حوت وليه صياد على رأي شكري سرحان..

قالها أدهم وقد احمر وجهه كمريض فتح الجراح بمشرطه خراجًا دون بنج.. أعقبها محمد متسائلاً بصوت خفيض موجهًا نظره إلى حسين:

- هو فيه مخبرين في بلدكم يا حسين؟

انفجر رشدي ضاحكًا، والتفت حسين إليه باسمًا:

- ما تخافش.. البلد كلها شبر في شبر.. وكلنا عارفين بعض.. وغير كده إحنا في وسط أرضنا، يعني مفيش حد واصل حوالينا.. خد راحتك.

والتفت إلى حسن في إشارة ليكمل حديثه:

- بس خلاص.. أنا قولت اللي في دماغي.

أجابه حسن وهو يهم بالجلوس، وقد تناول عودًا من القصب وبدأ في مصّه متلذذًا.. وسكت الباقون كل واحد منهم يفكر في ما قاله حسن ولم ينتشلهم من سكوتهم إلا صوت رشدي متسائلاً بطفولية تظهر أحيانًا دون إرادة منه:

- طيب كل ثورة ليها اسم.. انتو متخيلين الثورة الجاية يكون اسمها إيه؟

أطرق السامعون قليلاً ثم انفجر أدهم قائلاً باستهزاء مصحوب بضحكة مريرة:

- هتبقى ثورة البلاليكا..

انفجر الحاضرون ضحكاً من تعقيب أدهم، إلا حسين الذي نظر إلى حسن قائلا:

- هي فعلا هتبقى زي البلاليكا اللي بيعزفوا عليها في الأوبرا الروسية.. إحنا عاوزين تلات أوتار عشان البلد دي تقدر تعزف سيمفونية، العالم كله يسمعها، ديمقراطية ومساواة وعدل، ولو فيه وتر ناقص هيبقى اللحن نشاز، والبلاليكا ليها تلات أوتار بس. يعني التشبيه بينهم صحيح.

- كفاية نكد وخلونا نفكر هنعمل إيه بعد ما نتخرج السنة دي إن شاء الله؟

خرجت الكلمات مصحوبة بدخان السيجارة الكثيف من فم رشدي، ونظر إليه الحاضرون كمن باغتهم السؤال فجأة، وبدأ أدهم حديثه قائلاً:

- أنا ناوي أفتح صيدلية في بورسعيد.. ورفع أدهم يديه كمن يخطب في حشد أمامه، تحقيقاً لرغبة السيد الوالد.

- وانا هحاول ألاقي شغل في شركة ملاحة من معارف بابا.

تلقف رشدي إجابة محمد والتفت إلى حسن المنهمك في أكل قرن فول حراتي ساخرًا:

- وإنت مش ناوي تشوف شركة طيران من معارف بابي زي ولد عمك؟

- لأ.. أنا ناوي أبقى صحفي واكتب في جورنال اسمه «سلامتها أم حسن».

على الرغم من عدم تعود حسن إلقاء النكات فإن دعابته أضحكتهم جميعًا بمرارة ممزوجة بالألم، صبغتها أخبار أصدقائهم القدامى.. الذين لم يستطيعوا الاستغناء عن مد أيديهم وطلب المساعدة من آبائهم، حتى بعد أن وجدوا أعمالاً، في أحيان كثيرة، تشطط بهم في مجالات بعيدة عن دراستهم. خرجت تنهيدة من صدر حسين كمن يهم بقول شيء يجب عليهم سماعه:

- انتو مش ملاحظين إن مفيش حد فينا خالص جاب سيرة السفر بره في الدول العربية؟

أسكتتهم ملاحظة حسين لبرهة، كمن أصاب كبد الحقيقة.

- الخليج ما بقاش زي الأول يا جماعة.. زمان كانوا محتاجين المصريين يعلموهم ويعمروا بلادهم، عشان كده الفلوس كانت كتيرة.. أما دلوقت خلاص..

قالها أدهم وهو يناول سيجارة لرشدي مرة أخرى.

- أنا مرة كنت عند هاني الحلاق.. وانتو عارفين رخامة الحلاقين في الرغي.. قال لي موضوع.. احترمته بصراحة لما حكاهولي..

اضطجع حسن وبدأ في الحكي وهو يطلب سيجارة من رشدي الذي ناولها

له بسرعة، فهم يعلمون أن حسن بدأ في الاندماج، بعدما تحفز عقله لتفسير الأمور بطريقته الخاصة، التي لطالما أدهشتهم من غرابتها وصدقها:

- كان عنده زبون عربي.. مش فاكر من أي بلد.. أول مرة راح لهاني في الصالون طلب منه انه يعمله ورنيش في دقنه.. هاني ضرب حيص بيص.. مش فاهم هو عاوز إيه.. لغاية ما فهم إنه عاوز يصبغ دقنه.. المهم إنهم اتصاحبوا على بعض، وكل ما ينزل الراجل مصر يروح للمحل عند هاني.. لغاية في مرة لما كانوا العراقيين بيبعتوا جثث المصريين بالطيران.. فسأله هاني في ساعة صفا: «هو ليه العرب ما بيحبوش المصريين مهما عملوا خير معاهم يا شيخ خميس؟».. تخيلوا الراجل رد عليه بإيه؟

اشرأبت الأعناق المحيطة بحسن، ووضع أدهم براد الشاي الصاج في وسط الفحم وهو ينظر إليه، وعينا حسين متعلقتان بفم حسن، وهو يضع بسرعة ملاعق السكر في الأكواب..

- رد عليه وقاله: «انتو يا مصريين الواحد فيكم ما لاقيش خبز ولا أكل لصغاره، وتلاقيه رافع راسه فوق ويقول وعنقه زي عنق الجمل أنا مصري».

«ابن الجلنف.. ده غبي.. حاقد».. خرجت التعليقات من الأفواه المشمئزة، ولم يتوقفوا إلا بعد أن ضحك حسن قائلاً:

- بس هاني ما سابهوش.. رد عليه ببرود وقاله: «بس إحنا لينا الحق يا شيخ خميس.. لأننا كنا بنعيش في المعابد وانتو عايشين في خيام في الصحرا.. إحنا كنا بنزرع ونتعلم وانتو كنتو بتجروا ورا الغنم.. واحنا لغاية دلوقت بنعرف الموضة واللبس وانتو أقصى شياكة عندكم جلابية وشبشب بصوبع»..

- ينصر دينه هاني ده.. والله واد أبوه.

صرخ رشدي بحماسة بدت واضحة على الجميع وهم يرتشفون من أكواب الشاي، وطلب حسين سيجارة من أدهم الذي هلل زاعقًا:

- أيوه يا سعادة المستشار انت والدكتور حسن الصحفي.. شوية انحراف عشان نعرف الطريق المستقيم.

- والله ما حد منحرف غيرك يا أدهم انت ورشدي.

- إحنا لازم نسافر بكرة إن شاء الله.. ما ينفعش ناخد الأسبوع التاني بعيد عن بيوتنا.

قالها أدهم وهو يحاول أن يتجنب نظراتهم اللئيمة تجاهه، لكن محمد باغته قائلاً:

- بوسي وحشتك ولا إيه؟

- هو بيموت في حاجة اسمها رقاصة.. فاكرين البنت بتاعت النايت كلوب في الزمالك، اللي قعدت ترقص لغاية الصبح؟ عينه ما نزلتش من على

وسطها خالص..

- يعني هو في حد نزّل عينه من عليها خالص.

خرجت الكلمات مصحوبة بدخان كثيف من فم حسن الذي يحاول جاهدًا أن ينهي السيجارة رغمًا عنه، إلى أن ألقاها من يده وهو يستمع إلى محمد الذي يؤكد على أصدقائه ويدقق النظر إلى حسين الذي ظهرت ابتسامة على وجهه لم يلحظها سوى محمد قائلاً:

- إحنا هنجتمع تاني بعد الامتحانات النهائية.. إن شاء الله زي السنة اللي فاتت عندنا في مصر.. وتعملوا حسابكم على كده من أول دلوقت.. اتفقنا؟

- خلاص اتفقنا.

أجابه رشدي وحسين.. أعقبها أدهم بقوله:

- تمام بس عاوزين نندهش في النايت كلوب.

- حاضر يا سيدي.. كلنا هنندهش إن شاء الله.

تعالت الضحكات بعد دعابة محمد، وعمَّ الهدوء قليلاً لالتقاط الأنفاس، إلى أن رفع أدهم عينيه إلى رشدي، وهو يحاول أن يضرم النار في بعض الحطب الجاف مثلما رأى حسين يفعل سابقًا لإعداد الشاي ليستأنسوا بجلستهم على النيل.

- انتو عندكم سلاح يا رشدي في البيت؟

- طبعًا يا رجل المستحيل.. مفيش بيت في الصعيد مفيهوش سلاح.

قالها رشدي متفاخرًا وهو يناوله سيجارة.

- والحكومة سايباكم؟

سأله محمد وعلامات الاندهاش بادية على وجهه..

- لو السلاح مترخص مفيش مشكلة.. أما لو مش مترخص، فاحنا بنلاقي طريقة نخبيه في البيوت.

أجابه حسين وهو يناول رشدي كيس السكر الأبيض ثم أكمل بهدوئه المعهود:

- السلاح ما بيخرجش إلا للشديد القوي، يعني مش منظرة.. وإحنا لينا طرقنا اللي بندس بيها السلاح حتى لو حملة الشرطة جابت كلاب بوليسية ما يعرفوش يوصلوله.

- ازاي يعني؟

سأله حسن باهتمام وهو ينظر إلى حسين الذي أردف قائلاً:

- يعني مثلا في طريقة من الطرق إنك تلف السلاح في قماشة وتخبيه في ماسورة بلاستيك من بتاعة الصرف الصحي.. وتفحت الأرض وتردم الماسورة،

وبعد كده يا إما ترش فلفل اسود مطحون أو سبخ بهايم عشان الكلاب تفقد حاسة الشم.

- ده انتو جبابرة يا معلم.. أمال بيقولوا عليكم صعايدة ليه؟

قالها أدهم وهو يضحك، ونكزه رشدي في جنبه قائلاً:

- يا ابني إحنا أذكى من بتوع بحري بمليون مرة.. بس إحنا بنحب نتريق على نفسنا.

زغاريد

ارتفع رنين التليفون في منزل المرحوم كامل.. والتقطت يد حسين السماعة بلهفة وتوتر، منتظرًا صديقه رشدي ليزف إليه بشرى نجاحه، لم تظهر علامات الفرح على وجهه إلا بعد أن أخبره بحصوله على تقدير جيد جدًّا.. وتهللت أساريره بنجاح رشدي وأدهم ومحمد.. وأكد عليه حسين أن يتصل بهم فورًا ليبلغهم بنتيجتهم.. وارتفعت زغرودة واهنة من الحاجة فريدة، التي احتضنت ولدها كعادة كل عام، وأخذت الدموع تنساب كصنبور معطل محبسه، ودلف إلى الدار عمه الأكبر قاعود وأبناء عمومته يحملون صناديق لزجاجات المياه الغازية كعادتهم في الفرح، وسأله قاعود وعلامات الفخر بادية على وجهه، بعد أن هدأت الدار من المهنئين من أبناء القرية..

- ناوي على إيه يا ولدي؟

- إن شاء الله هقدم ورقي في النيابة العامة بعد ما أنتهي من إجراءات الإعفاء من التجنيد.

قالها حسين بحماسة مفرطة أسعدت عمه الذي أردف قائلاً:

- الله يبارك فيك يا حسين.. بس يا ولدي أنا عارف إن الإعفا مش هتتأخر لأنك وحيد والدتك والنيابة لسه قدامها تلات أربع شهور.. فأنا رأيي إنك تتدرب الكام شهر دول عند الأستاذ عبد الصمد المحامي في البندر.. وتبقى عرفت كلام المحامين كيف..

- حاضر يا عمي.. وانا من أول الأسبوع إن شاء الله هروح للأستاذ عبد الصمد في المكتب.

- كله خير يا ولدي.. وانا هوصي عليك وأديله خبر بالموضوع.

- بس يا عمي أنا كنت عاوز أستأذنك في حاجة كده.. أنا عاوز أعمل ختمة قرآن لأبويا الله يرحمه.

- والله أخدتها من على لساني يا ولدي.. أنا كنت نادر يوم نجاحك بالشهادة العالية إني أجيب المشايخ ويختموا القرآن في الدار وندبح عجل ونعزم أهل البلد.

- خلاص يا عمي.. اتفقنا.

- الجمعة الجاية إن شاء الله المشايخ يبتدوا الصبح، وبعد صلاة الجمعة يبقى الغدا.

- إن شاء الله.

ونهض الحاج قاعود يرافقه حسين إلى باب الدار، ثم اتجه بعدها إلى

محطة القطار في انتظار صديقه رشدي البايض، بعد أن عرج على منزله المجاور لداره ليزف إليهم بشرى نجاح صديق طفولته. وعلى رصيف المحطة بعد أن انتصف النهار أتى القطار ليرج المكان بصريره، وهبط رشدي تبحث عيناه عن حسين الذي تلقفه بالأحضان عند رؤيته مهنئًا له بنجاحهما.. وبانتهائهما من مرحلة الدراسة والبدء في مرحلة العمل واكتشاف الدنيا من حولهما.

- أخبار حسن إيه؟ ما سألتش عليه؟

- بدل ما تسأل عن محمد وأدهم؟ قالها رشدي مندهشًا.. طبعًا ساقط زي كل سنة.

- انت كئيب.

بدا الانزعاج والحزن على وجه حسين، وأطرق وهو ينظر إلى الأرض.

- يا عم الريس أنا لسه جايب تلات أخبار عنب.. يعني أربعة نجاح وواحد سقوط.. إيه المشكلة؟

قالها رشدي باستهزاء محاولاً التخفيف من انزعاج حسين الذي لم يأبه بتعليق صديقه، واتجه الاثنان ليكملا جلستهما أمام دار رشدي تحت شجرة صفصاف وارفة، ومصطبة من الطين موضوع عليها فراش من صوف الغنم، وقد خرج الأخ الأصغر لرشدي حاملاً صينية الشاي واضعًا إياها بين يدي الجالسين:

- ازيك يا خالد؟ عامل إيه؟

- الحمد لله يا أستاذ حسين.

أجابه الصبي، ذو العشرة أعوام بلهجته الصعيدية، وهو يبتسم إلى محدثه، الذي ينظر إليه أطفال القرية بإجلال واحترام.

- شد حيلك يا خالد.. الأجازة بتاعتك لازم ما تبقاش لعب وبس..

- حاضر يا أستاذ حسين.. أنا بروح الكتاب أحفظ قرآن.

- تمام يا خالد.. وبعد العصر لازم تقرا القصص الصغيرة اللي مستلفها مني.. خلاص؟

- خلاص يا أستاذ حسين.

انصرف الصبي بعد تلك المحادثة القصيرة مع حسين وتشجيعه له، ونظرات رشدي الباسمة تلاحق أخيه الأصغر.

- انت بتعرف تكلم كل الناس يا حسين.. الصغير قبل الكبير.. والحرمة والبت.

قالها رشدي لصديقه وهو يرشف من كوب الشاي الساخن..

- يا ابني لازم نحترم الناس ونكون قد حجمنا اللي شايفينا فيه.

- طيب يا عم الفيلسوف.. خلينا نشوف هنعمل إيه..

- يوم الجمعة إن شاء الله في ختمة لأبويا الله يرحمه.

- تعيش وتفتكر يا حسين.

- الله يبارك فيك. ومن الأسبوع الجاي نسحب الورق من الكلية ونروح التجنيد..

- طبعا انت إعفا يا سيدي.. بس أنا الله أعلم.

- والله ممكن يطلعوك إعفا لعدم سلامة قواك العقلية..

بدت علامات الجد واضحة على كلمات حسين، مما أسكت رشدي قليلاً، كمن فوجئ بما لم يتوقعه لبرهة، ثم انفجر ضاحكًا وهو ينكز كتف صديقه، مشاطرًا له الضحك.

رحلة الصيف

ترجل حسين ورشدي من القطار المقبل من سوهاج بعد أن هدأت حركته على الرصيف الثامن لمحطة مصر مع هبوط أول ضوء للصباح، وكان في استقبالهما حسن ومحمد اللذان فتحا ذراعيهما مرحبين بصديقيهما..

- حمد الله على السلامة..

بادرهم حسن وهو يحاول أن يحمل حقيبة حسين، وبالمثل فعل محمد مع رشدي، وقد أبى كل منهما أن يترك حقيبته، احترامًا لهما، وخرج الأربعة إلى الساحة المكتظة بالقادمين والراحلين أمام المبنى العتيق لمحطة مصر.. وقد وقف حسين لبرهة متأملاً المكان الخالي لتمثال رمسيس، وهو يهز رأسه بأسى قائلاً:

- حجارة وطوب وأسوار حديد زي السجون.. منظر مشوهه يسد النفس.

- انتو لسه ما شفتوش حاجة.. كل شيء بيتغير للأسوأ كل يوم.. مش كل سنة.

أجابه محمد وهو يفتح حقيبة السيارة ويضع ما يحمله صديقاه في

جوفها.. ونظرات رشدي وحسين من خلف زجاج السيارة تتفحص الميدان الواسع بأرضيته الرخامية الصماء، وافتراش الباعة عند مداخل ومخارج أنفاق المترو.. إلى أن بدأت السيارة في الإسراع ولم تتوقف إلا أمام عمارة صغيرة تتكون من أربعة أدوار تحوطها الأشجار وحديقة صغيرة عند مدخلها.

- دي الشقة بتاعة كل مرة.. يعني عارفين النظام.. ترتاحوا وبعد ما تصحوا يكون أدهم وصل ونبدأ نخطط البروجرام بتاعنا.

قالها حسن وهو يهم بمغادرة شقتهم القابعة في الدور الأخير من منزل أبيه وعمه ذي الأربعة أدوار، وهبط برفقة محمد إلى شقتهم في الدور الثالث.

- صباح الخير يا محمد.. إيه اللي مصحيكم بدري قوي كده؟

باغتتهم شيماء وهي تخرج من المطبخ، تحمل كوب النسكافيه وتتأبط صحيفتين أجنبيتين تقذف بهما على منضدة صغيرة، أمام «فوتيه» ارتمت بجسدها عليه بجوار نافذة تطل على حديقة فيلا مهجورة بجوار بنايتهم.

- كنا في المحطة بنجيب حسين ورشدي.. هيقعدوا معانا كام يوم زي كل سنة..

اتجه محمد إلى المطبخ بدوره سائلاً حسن الذي تناول صحيفة عربية وأخذ يتصفح عناوينها.

- أعملك معايا نسكافيه يا حسن؟

- يا ريت.. قالها حسن دون أن يلحظ اعتدال أخته في جلستها وقد بدا عليها الاهتمام وهي تتجه ناحية أخيها محمد قائلة:

- هو حسين ناوي على إيه بعد ما ياخد الليسانس؟

- على النيابة إن شاء الله.

صمتت شيماء قليلاً، واتجه بصرها ناحية أخيها المنهمك في قراءة الجريدة وقد فاجأته بسؤالها:

- ممكن أخرج معاكوا النهارده يا حسن؟

- لأ ما ينفعش النهارده.. ده أول يوم.. ممكن بكره ولا بعده نروح نتعشى كلنا في «تامارو».

أجابها حسن دون التفاتة منه، وقد وضع محمد كوب النسكافيه بجوار ابن عمه قائلاً:

- هما قاعدين معانا إن شاء الله الأسبوع كله يا شيمو.. النهارده هتبقى سهرة رجالي.

قالها محمد وهو ينظر إلى عينيها باسمًا وقد أشاحت بصرها عنه إلى الجريدة الممسكة بها، وانهمكت في قراءتها متجاهلة حديث أخيها وابن عمها،

الذي قطعه صوت رنين الموبايل وقد ظهر اسم أدهم اللبروس على شاشته.

- أيوه يا أدهم.. انت فين دلوقت؟

وجاءه صوت أدهم قائلاً:

- أنا تحت البيت..

- يا ابني اطلع.. إحنا في شقة أونكل سيف..

- أنا نسيت في الدور الكام.

- الدور التالت يا زهايمر.

ومضت لحظات ثم ارتفع صوت جرس الباب، فنهض حسن ومحمد إلى الباب مرحبين بصديقهما القادم من بورسعيد، ودلف إلى الصالون الواسع المفتوح على جنبات صالون آخر أكبر منه، وحجرة مكتب مغلقة بباب من الزجاج الأبيض المعشق بخيوط من فضة، وألقى التحية إلى شيماء الممدة على المقعد دون أن تنهض من جلستها وهو يمد يده لمصافحتها:

- أهلا يا دكتورة.. ازي حضرتك؟

انفجرت شيماء ضاحكة وهي تنهض مرة واحدة ناظرة إلى عيني أدهم اللتين تشعان خجلاً:

- مش كل مرة نبتدي من الأول يا زهايمر..

قالتها وهي تتجه إلى المطبخ بعد أن أجابها أدهم بصوت مختلف تمامًا عمَّا كان عليه منذ قليل:

- خلاص يا شيمو.. أنا كل مرة بترجعي من إنجلترا في أجازتك أحسب إنك اتعديتي من البرود الإنجليزي، وبقيتي الليدي تاتشر، يا ريت والنبي تعمليلي نسكافيه زي اللي معاكم ده.

تعالت ضحكات حسن ومحمد، الذي أردف قائلاً:

- استلمي يا ستي أول واحد.. لسه باقي المثلث يكمل برشدي..

- حاضر يا سيدي.

قفز أدهم وهو يلتقط سلسلة مفاتيح معلقة في بروز ناتئ فيما بين ساقي تمثال أبيض بداخل صندوق من الأبانوس موجود أعلى كنسول عتيق بجوار باب الشقة.. وهم بفتح الباب قائلاً بصبيانية:

- مش هفوت الفرصة دي.. أكيد رشدي وحسين نايمين.. أنا لازم أصبَّح عليهم بطريقتي.

- بلاش تعكنن عليهم.. أحسن يبوظوا السهرة اللي عاملينها النهارده في الزمالك.. والاندهاش العجب اللي هيحصل..

هدأ أدهم قليلاً وهو يشير بكف يده إلى فمه وهو ينظر إلى المطبخ، كي لا

تسمعهم شيماء التي ارتفع صوتها قائلاً:

- ما تشاورش يا أدهم.. أنا عارفة سهراتكم المدهشة اللي في أول يوم..

- يا دي الفضيحة.. طيب اعملي نفسك مش عارفة أو مش واخدة بالك..

قالها أدهم بأداء مسرحي وهو يتناول كوب النسكافيه من يد شيماء.

- أنا بقالي سبع سنين في بلاد «الفرنجة».. وعارفة يعني إيه حرية.. مش زي عندكم.. تقعدوا تقولوا كلام كبير عن الحرية وانتو بتقيِّموا الراجل بالصلاة في الجامع والشغل الشيك، والبنت بالحجاب والصوت الهادي وكسوفها الكذاب.. يعني الحركات القرعة بتاعة المصريين.

- احنا ابتدينا يا شيمو ولا إيه؟ اصبري شوية لغاية ما البرتيتة تكمل بالناس اللي فوق.

نظر محمد إلى عقارب ساعة رأسية تستند قاعدتها على الأرض الخشبية، يتدلى بندول لا يهمد عن الحركة.. وقطع كلامه عند سماعه انفراجة الباب وقد دلفت إلى الداخل شهيرة ترافقها الخادمة وهي تحمل أكياسًا بيضاء مطبوعًا عليها اسم سوق شهيرة.

- ازيكم يا ولاد.. الضيوف وصلوا يا حسن؟

دلفت شهيرة وهي تعلق سلسلة مفاتيحها الذهبية بيد التمثال وقد

سبقتها الخادمة إلى المطبخ مطأطئة رأسها لتفرغ محتويات الأكياس من خضراوات ولحوم وفاكهة.

- أهلاً أدهم.. ازيك يا حبيبي.. حمد الله على السلامة.. سوري ما أخدتش بالي.

تفاجأت شهيرة بوجود أدهم، الذي نهض من مقعده يمد يده ليسلم عليها، وقد ظهرت علامات الخجل باحمرار وجهه، وهو يصوب عينيه إلى الأرض قائلاً:

- أهلا طنط.. الله يسلم حضرتك.

- انت هتعمل كده معانا كل مرة يا زهايمر؟

قالتها وهي تضحك محتضنة ابنتها التي أقبلت عليها مقبِّلة إياها قائلة:

- هو ما بيفكش إلا في آخر الأسبوع وهو ماشي..

ضحكت شهيرة وهي تنعته بما يردده أمامها أولادها واتجهت إلى غرفتها مستأذنة إياهم، ونهض محمد ليوقظ حسين ورشدي ليتناولا الإفطار بعد أن زعقت شيماء في الخادمة سنية لتعد الطعام لنصف دستتهم، رافقه أدهم وهو يحمل حقيبته متجهين إلى الطابق العلوي ليضع حاجياته في شقة المسافرين كما يحلو له أن يسميها.

وعلى مائدة طويلة تراصت عليها أطباق متنوعة من الجبن والمربى والكرواسون، وبراد خزفي من الشاي وآخر من اللبن، جلست شهيرة على رأس المائدة، يحدها من اليمين أدهم، يليه رشدي، ثم شيماء، ويجلس قبالتها حسين مجاورًا لحسن، وبدأت عبارات الترحيب الحارة من شهيرة وهي تسأل عن أحوال بلاد الصعيد تارة وأحوال بورسعيد تارة أخرى.

وانتبه الجالسون على صوت باب الشقة وهو ينفرج عن أشرف ببدلته كحلية اللون ذات الكمين المزينين بخطين من الشرائط الذهبية المميزة لربابنة الطائرات، ويحمل أكياس الهدايا كالعادة في يد، والأخرى تحمل حقيبته الصغيرة. ونهضت شهيرة مسرعة إليه وهي تردد معاتبة له:

- انت وحش.. برضه ما تقوليش معاد وصولك!

وقفزت متعلقة برقبته وقد أحاطها بذراعيه وهي تنظر إلى عينيه قائلة بدلال أنثوي واضح على صوتها وهي تلثم خده بقبلة خاطفة:

- أنا مخصماك.

- ما تقدريش تخاصميني عشان عملتلك مفاجأة.

قالها أشرف وهو يهم باحتضانها بذراعيه، لكنه أنزلها عندما فوجئ بالجالسين على سفرته، وهم يضعون أعينهم في الأطباق الراقدة أمامهم وقد

تلونت وجوه بعضهم بالاحمرار.

- ده احنا عندنا ضيوف!

أسرع أشرف فاتحاً ذراعيه لحسين الذي نهض يتبعه رشدي وأدهم منتظرين دورهما في السلام والأحضان والقبلات الصادقة.

- ازيكم يا رجالة.. بصراحة مفاجأة حلوة إني أشوفكم.

- الله يسلمك يا عمي.

- حمد الله على سلامة حضرتك.

- ده شرف لينا نشوف حضرتك يا كابتن.

توالت العبارات والابتسامات من حسن ورشدي وأدهم، وأشار لهم أشرف بالجلوس مستأذنًا منهم لدقائق، يعود بعدها لينضم إليهم على السفرة.

- إحنا ما ينفعش نشوفكم من السنة للسنة..

- معلش يا عمي.. حضرتك عارف ظروف السفر صعبة بالنسبة لينا..

أجابه حسين وهو يرشف من كوب الشاي الموضوع على يمينه، أعقبها حسن قائلاً:

- بس أعتقد إن شغلك إن شاء الله في النيابة هيكون هنا في القاهرة.. يعني المشوار هيبقى سهل.. ولا إيه؟

- بسم الله ما شاء الله.. انت اتقبلت في النيابة يا حسين؟

قالها أشرف وعلامات الفرح بادية على وجهه.. أعقبها حسين بابتسامة قفزت من عينيه الناظرتين باستحياء إلى شيماء:

- لسه يا عمي جواب التعيين ما وصلش..

أمسك أشرف بشحمة أذنه، وهو ينظر إلى رشدي مشاكسًا له بقوله:

- وانت يا رشدي.. ناوي على إيه؟

- أنا مستني الإعفا من التجنيد.. مش فاضل غير الكومسيون الطبي.. بيقولولي إن عندي فلات فوت..

قاطعه أدهم ساخرًا:

- فلات فوت في عقله يا أونكل أشرف.. مش في رجليه.

تعالت ضحكات الحاضرين، وقد التفت رشدي إلى صديقه قائلاً بشماتة:

- هاخد إعفا أحسن ما أكح تراب على الأقل سنة في الجيش زي حالاتك.

- الشباب كلهم بيخافوا من التجنيد.. اللي بياخد إعفا كأنه هرب من النار.. رغم إن التجنيد ده ليه معنى كبير قوي.. يعني المطرب اللي زور شهادة الجيش ما كانش فاكر ان ده نقطة سودة في تاريخه طول حياته.. بس أنا مستغرب من الناس اللي بيدافعوا عنه لغاية دلوقت.

- انا مش عارفة يا أشرف البنات متشحتفة عليه ليه؟

- يا بابي.. في إنجلترا مفيش حاجة اسمها إعفاء من التجنيد.. الشباب لازم يعملوا حاجة لبلدهم، عشان كده عملوا الخدمة الاجتماعية، يعني ممكن شاب مش مؤهل لدخول الجيش بس ممكن يخدم في المجتمع: إنه يرافق مريض، أو ضرير لفترة من الوقت.. ويهتم بيه.. عشان ده واجب لبلده.

قالتها شيماء وهي تنظر إلى أبيها الذي بدأ في الاستماع بفخر إلى آراء الشباب المتحلقين حوله وزوجته.

- بس احنا يا عمي بنشوف التجنيد ده تأخير لمستقبلنا.. يعني الواحد يدخل سنة أو تلات سنين وهو مرمي في الصحراء عشان خدمة إجبارية..

قاطع رشدي حديث أدهم قائلاً بلهجة صعيدية دائمًا ما تُفقد شهيرة تركيزها في تفسير معنى كلماته، وينصب اهتمامها بتلك الحروف الخارجة من فمه:

- يعني يا خوي.. لو قامت الحرب نجيب مين يدافع عن البلد؟ نبقى زي الزرع النـي.. مالهوش عازة واصل.

تلقف حسن طرف الحديث قائلاً:

- انتو عارفين إن الجيش المصري له تصنيف على مستوى العالم كله؟!

الجيش بتاعنا رقم عشرة بين جيوش العالم، وده تصنيف المخابرات الأمريكية، مش كلام في الهوا.. وعدد السكان، اللي الحكومة الذكية بقريتها الغبية بتصوَّت منه، وتقول إنه بيحرق أي تنمية بتحصل في بلدنا، هو ده من ضمن معايير قوة الجيوش في العالم.

- بس الجيوش دلوقت بتستخدم التكنولوجيا يا حسن.. يعني مش عدد وبس.

- انت تقدر تثق في التكنولوجيا يا حسين؟ أنا رغم إني عايشة في إنجلترا.. وطبعا دي بلد التكنولوجيا.. حتى شغلي في الجامعة معتمد عليها.. لكن لو حصل خلل فيها الدنيا بتُقف.. بتتشل.. والبني آدم هو اللي بيفكر في الحل مش الآلة.

- انتو عارفين يا ولاد إن الطيارة فيها قيادة آلية.. بس مهما كانت دقيقة وأفضل في الحالات العادية من الطيار البشري.. لكن في مواقف حرجة جدًّا بتبقى محتاجة للحس البشري.

- بلادنا حلوة قوي عشان فيها شباب زي الورد بيفكروا ويتكلموا زي حالاتكم.

قالتها شهيرة وهي تتأمل الوجوه الحاضرة بابتسامة صافية زاد من بريقها ثبات بصرها على وجه زوجها، الذي بادلها قائلاً بدعابة أسكرتهم

جميعًا من الضحك:

- هي سنية فين؟

رجم ثريا

في الشقة العلوية تجمَّع الأصدقاء الخمسة يلتفون حول شاشة التليفزيون المسطحة المعلقة على الحائط أمامهم، التي لا يعيرونها أي اهتمام، وقد مدد حسين جسده على أريكة قطيفية خضراء وهو يضع جهاز الـ«لاب توب» على بطنه، تتناقل أطراف أصابعه على مفاتيحه بسرعة ودقة، يستند أدهم بظهره على تلك الأريكة وهو يفترش الأرض أمام منضدة زجاجية وقد وُضعت عليها قطعة سوليفان داكنة اللون، وفتات من تبغ السجائر متكوم فوق ورقة بيضاء، يساعده رشدي في لفها وهو يغني موالاً صعيديًّا لم يفهم معناه سوى حسين المنهمك في نقل ملف فيديو من جهازه إلى أسطوانة مندسة بداخله.

ودلف محمد وهو يحمل زجاجات داكنة ذات غطاء من الفلين، وضعها بجوار حزمة السجائر على المنضدة الزجاجية، وترك الجميع ما في أيديهم ونهض حسين من رقدته منتبهًا لصوت حسن وقد شمر عن ساعديه متجهًا إلى الحمام قائلاً:

- أنا ما صليتش العشا.. مين يصلي معايا قبل ما نشغل الفيلم؟

أطبق الصمت على أدهم الذي دفن نظره فيما يمسك به بين أصابعه من قطعة الحشيش التي يقطع فيها بحد الموسى، وأشاح رشدي بوجهه إلى شاشة التليفزيون وهو يردد مواله، وأومأ محمد برأسه نافيًا دون أن ينبس بكلمة، ورجع حسين بجسده إلى الأريكة قائلاً له:

- الحمد لله.. أنا صليت من بدري.

اتجه حسن إلى إحدى الغرف تاركًا الجميع منهمكين فيما يفعلون، دون اندهاش أو استنكار، ونهض حسين مرة أخرى ليضع أسطوانة في جوف جهاز الـ«دي في دي» بعد أن نقل فيلمًا إيرانيًّا عليها، وبدا في التأكيد على وصلات الشاشة والجهاز الذي بدأت لمبات صغيرة تضيء فيه إلى أن اسودت الشاشة وظهرت افتتاحية الفيلم، وعندها ضغط حسين على مفتاح الإيقاف انتظارًا لحسن.

أغلق محمد نور الشقة تمامًا إلا من ضوء شاشة التليفزيون الضخمة، وجلس الأربعة على الأرض حول المنضدة الموضوع عليها طبق مملوء بالسجائر المحشوة بالحشيش، وقد وضع كل منهم أمامه كأسًا من النبيذ الأحمر، تتوسطها إحدى الزجاجات الأربع، وقد رقد حسين بجوار أدهم في طرف الجلسة وهو يضع كأسًا من عصير التفاح بجوار دورق شفاف مملوء هو الآخر بشرابه.. وضغط على مفتاح التشغيل من الريموت الممسك به بعد أن تلفت إلى وجوههم في إشارة

إلى التزام الصمت. وأضيئت الشاشة على اسم الفيلم باللغة الإنجليزية يقبع أسفله ترجمة باللغة العربية بين قوسين «رجم ثريا»، لم يُسمع صوت أيٍّ منهم طيلة التسعين دقيقة إلا من صوت فوهة زجاجة النبيذ وهي تسكب محتواها في كئوسهم وصوت دروسهم وهي تطحن حبات البندق في أفواههم. إلى أن نهض حسين ليضيء أضواء الشقة بعد أن انتهى الفيلم وعمَّ السكون لحظات قليلة قطعها رشدي قائلاً:

- الله يعكنن عليك يا حسين..

- لا والله.. الله ينور عليك يا سحس.. فيلم شديد قوي..

قالها محمد وهو يفتح فرجة صغيرة من النافذة المقابلة لهم، وقد أمسك حسن بآخر زجاجة نبيذ وهو يغرس سدادتها البلوطية بالمسمار اللولبي:

- تفتكروا يا جماعة إننا ممكن في يوم من الأيام نوصل لكده؟ إن احنا نتهم أي واحدة في شرفها وندفنها بالحجارة في وسط الشارع وكل واحد يروح بيته وينام وانتهى الموضوع؟

- الحكاية مش بالساهل يا حسن.. بلدنا غير أي بلد تاني.. إحنا عندنا كيانات وزي ما بيصدعونا في التليفزيون.. مصر بلد مؤسسات.. يعني مش هيحصل ونبقى زي إيران.. أنا جبت الفيلم ده عشان نعرف الأجانب بيشوفونا ازاي.

- والنبي كفاية كلام عن الفيلم المهبب ده.. خلونا نكمل السهرة بتاعتنا على خير.. أنا لازم أسافر بكرة الضهر.. ما ينفعش أسيب الصيدلية للولاد كل الفترة دي.

خرجت الكلمات من فم أدهم مصحوبة بدخان سيجارته الكثيف، وقد احمرت عيناه..

- وانا عندي شغل في الجورنال يوم السبت، ولسه ما خلصتش مقال البيه رئيس التحرير..

ضحك الأربعة عندما قالها رشدي بعصبية واضحة على وجهه..

- والله أبو كمال بتاعك ده مشغلك ساكاماكا.. أنا خايف أحسن تكون بتروح له البيت يا رشدي.

- والله ساعات يا أدهم.. وهو حد يقدر يقول لأ لواحد بيرفع سماعة التليفون ويكلم الريس مباشرة.

انطلقت الضحكات مرة واحدة إلا من شهقة خرجت من صدر حسين الممسك بجهاز الـ«لاب توب» وهو يصرخ فرحًا:

- الدنيا مقلوبة على موضوع البرادعي وكلامه عن ترشيحه للرئاسة.

- يا عم هو حاطط مسمار جحا في الموضوع.. دايما يقول: «لو الظروف

سمحت أو اتغيرت».. سمحت إيه؟ واتغيرت فين؟! زي ما أقول أنا هطلع القمر لو الظروف سمحت.

استنكر أدهم ما أثاره حسين الذي عقب بقوله:

- الفيس بوك بتاعك ده شاغل الدنيا كلها..

- طبعا يا ابني.. كل الناس دلوقت على الفيس بوك..

- التعميم غلط يا حسين، أنا واحد من الناس عملت أكونت فيه، مجرد يومين اتنين وزهقت.. لغيت حسابي من عليه، الفيس بوك ده عامل زي المراحيض العمومية.. تلاقي واحد مزنوق في كلمتين ولا في رأي ولا حتى في فكرة ومش عارف يقولها لمين.. يعمل حساب في الفيس بوك ويدخل يبولهم ويطلع يجري..

- انت دماغك شعشعت.. كفاياك كده يا حسن.

ارتشف محمد آخر قطرة من كأسه، وأكمل قائلاً:

- بس والله تشبيه حلو قوي..

- الفيس بوك ده عمل تغيير كبير قوي في البلد.. الناس بتتواصل مع بعض ويحددوا مظاهرات ويتفقوا على اجتماعات بسهولة. يعني أنا أقدر أكلم البرادعي أو أراسل جماعة كفاية أو أي حد تاني من غير تعب.

سكت حسين ولم يكمل كلامه عند إشارة من إصبع أدهم وهو يقول متقمصًا دور العالِم ببواطن الأمور:

- بس فيه عيون وودان ورا دماغك، وشايفة انت بتعمل إيه.. يعني كل حاجة تحت عينيهم وأول ما يلاقي إن اللعب بقى بجد.. ضرب الجزم هيشتغل يا ريس.

- مين نازل معايا بكرة مظاهرة الجامعة؟

تساءل حسن محرضًا وهو ينظر إلى أصدقائه.

- يا حسن كفاية كده مظاهرات.. على الأقل في السنة النهائية بتاعتك.

أجابه حسين مستعطفا، وتلقف منه أدهم الحديث قائلاً:

- خلص الكلية يا حسن وبعدين اعمل كل اللي نفسك فيه.. ما ينفعش الوقفات والمظاهرات بتاعتك كل يوم!

صرخ رشدي مقاطعا كعادته وهو يهب على قدميه راقِصا، ثم أردف:

- أنا مت من الجوع.. نطلب دليفري؟

التقط حسن سماعة الهاتف وهو مغلوب على أمره، وضغط على أزراره المضيئة وبدأ في إملاء ما يكتبه كل واحد منهم في ورقة أمامه.

دلع البنات

- وآخرتها معاك يا حسين؟

- أنا قولتلك كل حاجة.. القرار قرارك انت..

- ليه متعمد انك تخلي حل العقدة بتاعتك في إيدي أنا؟ انت عارف ظروفي كلها.. أنا ما أقدرش أسيب شغلي في إنجلترا وأنزل مصر.

تأمل حسين عيني شيماء قائلاً لها في حدة لم تعتدها منه من قبل:

- وانا ما أقدرش أسيب شغلي في النيابة وقبل ده أمي وأسافر معاكي.. يا ريت تفكري بعقلك شوية.

- يعني عاوزني أنزل مصر.. وأقعد جنب طنط في البلد وألبس الخيمة السودة بتاعتكم دي؟

خرجت ضحكة ممزوجة بتهكم من فم حسين الذي أردف قائلاً:

- هو ده اللي تعرفيه عن الصعيد؟ إن مرات الابن تقعد جنب حماتها وتلبس خيمة سودا؟ أنا ما طلبتش منك ده.. الحل انك تستقري في مصر.. وممكن تشتغلي في أي جامعة أجنبية هنا..

قاطعته شيماء بقولها:

- أنا حياتي كلها هناك.. ازاي؟

- كنت فاكر إنك لما تقوللي «انت حياتي» تبقى حياتك هنا..

- وانا كنت فاكرة إنك لما تقولي أنا بحبك أكتر تبقى بتخاف عليَّ وما تحسسنيش إني لازم أتنازل.

سكت الاثنان وأطرق كل منهما، ينظران إلى صفحة النيل الممتد بجوار سور الكازينو القابع أمام الشيراتون في صباح اليوم السابق لسفر شيماء إلى جامعتها في إنجلترا..

- أنا اتنازلت قبلك يا شيماء عشان خاطرك.. قبلت إني أستقر في مصر وأسافر لأمي كل أسبوع.. وقبلت إني أشتري شقة جوازنا في نفس الشارع اللي ساكنين فيه.. وقبلت إنك تشاركيني في تخطيط حياتي اللي هتبقى حياتك.. ليه في أول اختبار ما تتنازليش؟

- يعني لو قبلت إني أنزل مصر ده يرضيك؟

- لو وافقتي دلوقت قبل ما تسافري هحدد ميعاد جوازنا مع الكابتن.

قالها حسين وقد انفرجت أسارير وجهه بعد أن ظهرت أسنان شيماء البيضاء عن ضحكة ماكرة تلقفها حسين وقد ظهرت علامات العتاب على وجهه

وهو يقول:

- إنت عارفة إنك راجعة مصر بقى.. وكنتي بتلاعبيني.. إنت شريرة يا شيمو.

ضحكت شيماء بصوت مرتفع لفت أنظار الجرسون والمارين خلف المنضدة الجالسين عليها وقد احمر وجه حسين خجلا وهو يقول:

- إنت عارفة إني صعيدي.. يعني ما ينفعش مراتي تضحك في مكان عام بصوت عالي..

- حاضر يا سيادة المستشار الصعيدي.. بحبك.

- بحبك أكتر.

الماتادور

في مستشفى شهير على شاطئ البحر المتوسط في مدينة «بلنسية» الإسبانية، ترقد نوال منذ شهرين في إحدى غرفه المطلة على البحر، يرافقها زوجها سيف الدين وأختها الوحيدة فيفي، للإعداد لعملية زرع كبد، بعد أن تمكن الفيروس منها على مدار سنوات بحثت فيها عن العلاج داخل مصر، وقد اخترق جسدها في يوم مشئوم كانت لافتات حملة التبرع بالدم تزين أعمدة وأشجار النادي العريق، وتقبع سيارات مكيفة يدلف الأعضاء بداخلها ممددين وقد انغرست الإبر في شرايينهم تمتص دماءهم وتقذفها إلى أكياس ملوثة، أتى بها رجل أعمال ذو سياج وحصانة فولاذية، لم يستطِع معها المصابون الاقتراب منه وملاحقته قضائيًّا، فقد كان أخطبوطًا تمتد أذرعه في أحشاء رجال يسطرون مستقبل الدولة وهم يحتسون الشراب ويدخنون السيجار. في مقار عصابتهم الكبيرة، تحدد أدوار أعضائها بنفوذهم، والقاعدة الوحيدة للانضمام هي: ادفع تكُن لك سلطة حامية من القانون.

لم تستطع نوال أو سيف الدين إثبات ضررها وإصابتها بالفيروس اللعين

من جرَّاء تبرعها بالدم، فابتلعت مصيبتها وزوجها في جوفهما وبدأ مشوار العلاج، فلا يعرف الإنسان قيمته إلا في المرض، فإن كان فقيرًا فهو هالك لا محالة قريبًا، بين أيدي من يرتدون معاطف بيضاء أسفلها قلوب سوداء، أما من كان غنيًّا، فهو هالك أيضًا ولكن ببطء بعد أن «يحلبوه» مثل الجاموسة.

لم يجد سيف الدين إلا نقل رفيقة حياته إلى إنجلترا للبحث عن متبرع، لكنه غيَّر الوجهة إلى إسبانيا بعدما علم بحظر القوانين الإنجليزية التبرع لشخص غريب دون درجات القرابة، وقد أظهرت تحاليل الابن عدم ملاءمته للتبرع إلى أمه، وانتهى بهم الحال في انتظار متبرع لها إلى أن يأذن الله بميعاد يكشف قرب انفراجة أزمتها، يسافر محمد على فترات ليطمئن على والديه في بلاد الماتادور الإسباني.

يرقد محمد ممسكًا بيد أمه وهو يضع فمه على أصابعها المدة بجوارها على السرير الأبيض وهو يقرأ لها القرآن، ويمسك أبوه باليد الأخرى كمن يريد أن يتحسس نبضها بعد أن بدأت تهاجمها غيبوبة المرض المتكررة.. حتى إن بدأت الأصابع في الارتعاش قليلاً يرفع كل منهما رأسه مصوبًا عينيه على الوجه الشاحب في انتظار انفراج الجفن عن عين لطالما وزعت الحنان على الطفلين المتحلقين حول الجسد المدد.

- أمي..

- نوال..

خرجت الكلمات في الوقت نفسه مع دموع منهمرة من أعين محمد وسيف عند رؤيتهما لنوال وهي تحاول جاهدة أن تفتح عينيها، وأشارت بإيماءة من رأسها ومحاولة مضنية لترسم ابتسامة على الوجه الشاحب دون جدوى، وعندها دلف الطبيب إلى الحجرة ترافقه فيفي وقد ارتسمت على وجهها علامات الفرح والارتياح وهو يخبرهم بصوت لاهث:

- خلاص يا سيف.. العملية بعد تلات أيام إن شاء الله.

غمزت فيفي بعينها الممتلئة بالدموع إلى أختها مداعبة لها، وأخذت تتحدث مع الطبيب بلكنتها الإسبانية كأنها واحدة منهم. ثم أشارت لمحمد وسيف لمغادرة الغرفة حتى تبدأ مراحل الاستعداد للعملية بتحاليلها ومراقبة مستمرة لنوال على مدار الأيام القليلة الباقية، التي شعر محمد وسيف كأنها دهر.

غادر ثلاثتهم إلى شقة فيفي وقد التقط سيف الدين تليفونه المحمول ليزف البشرى إلى أخيه وزوجته في القاهرة.

- إن شاء الله هنكون عندكم بكرة.

قالها أشرف بصوت يمتزج فيه الفرح والدموع.

- ما تتعبوش نفسكم يا أشرف.. كلها شهرين المتابعة بعد العملية وهنرجع مصر.

- لا.. ما ينفعش يا سيف..

تدخلت شهيرة في الحديث أمام مكبر الصوت لتليفون زوجها.

- أنا هعمل حسابي مع شيماء إننا ما نسيبكمش لوحدكم.. إحنا نطمِّن على نونو وبعدين شيماء ترجع شهر وبعدين نبدل مع بعض. إن شاء الله كل حاجة تبقى تمام.

- متشكر يا شهيرة.. والواد الخلبوص حسن...

لم تتركه شهيرة ليكمل جملته قائلة:

- ده على الموبايل مع محمد.. بياخد التقرير..

تعالت الضحكات الصادقة من الجميع.. والتفت أشرف إلى شهيرة بعد أن انتهت المكالمة قائلاً:

- أنا شايف إن شيماء تفضل مع جوزها.. وبعد شهر انتي ترجعي وهي تروح مكانك.. ما ينفعش تسيب جوزها وتسافر كل شوية.. ده صعيدي.

قالها أشرف باسمًا في وجه شهيرة التي نظرت إليه بدلال وهي تضع يدها على صدره قائلة:

- يعني مش هيقدر على فراقها ولا إيه؟

احتضنها أشرف في صدره وهو يلثم عنقها بالقبلات قائلاً:

- البنت لأمها زي المثل ما بيقول، وانا ما أقدرش أبعد عنك أبدًا.

التف ذراعا شهيرة حول أشرف وهي تغوص بجسدها في صدره قائلة وقد أغمضت عينيها:

- بحبك.

مظاهرة

- أنا مسافر دورة تدريبية لمدة تلات شهور لباريس، مع أعضاء مكتب النائب العام.

التفت حسين إلى زوجته، وهو يتناول طعام إفطاره قبل أن يتجه إلى مقر عمله بالتجمع الخامس.

- إمتى الكلام ده يا سونة؟

تساءلت شيماء وهي تضع المربى على قطعة توست، تناولها لزوجها وهو يرشف من فنجان الشاي.

- إن شاء الله الشهر الجاي..

أمسك حسين يد شيماء وهي تمد يدها وقبّلها ثم تناول قطعة التوست.

- طب كويس.. أنا هكون مع أونكل سيف وطنط نونو في إسبانيا الفترة دي..

قاطعها حسين فجأة كمن تذكر شيئًا مهمًّا:

- فكرتيني.. أنا ما اتصلتش بيهم إمبارح عشان أطمن عليهم زي كل يوم..

ونظر إلى ساعته قائلاً:

- أعتقد انهم صحيوا دلوقت.. فرق التوقيت مش كبير قوي.

والتقط الهاتف وضغط أزراره وانتظر قليلاً إلى أن سمع صوت محمد على الطرف الآخر، وبدأت عبارات المؤازرة والاطمئنان على نوال.

- إن شاء الله الشهر الجاي هكون عندكم واطمّن عليكم.. لأ.. أنا في دورة تدريبية في فرنسا.. مفيش تعب ولا حاجة يا محمد.. مش عاوز أي حاجة من هنا أبعتهالكم مع الكابتن؟ هما هيسافروا النهارده الساعة خمسة.. إن شاء الله.. نشوفكم على خير.. سلام.

انتهت المكالمة ونهض حسين ترافقه شيماء إلى منزل أبيها الذي يبعد ثلاثة شوارع عن شقتهما، وهبطت شيماء من سيارة زوجها بعد أن أكدت عليه أن يأتي مبكرًا ليكون معها في وداع والديها في المطار.

وفي الطريق بدأ رتل من السيارات المارة بجواره تهدئ من سرعتها إلى أن توقفت تمامًا وأخذ حسين ينظر إلى ساعته في ملل وهو لا يدري بما يحدث في نهاية شارع الجيزة.. فقد سدت عربة مصفحة منتصف الشارع وتراصت عساكر

مدرعة بألبسة سوداء خلف دروع طويلة وهراوات مغلفة بالجلد الأسود كأنهم بيادق على رقعة شطرنج، ترتفع الصيحات رويدًا رويدًا من بعيد، مقبلة من خلف أسوار مبنى جامعة القاهرة.. وأخذت الهتافات تعلو شيئًا فشيئًا، وكأنها اخترقت الحواجز والجدران، حتى وصلت إلى مسامع القابعين خلف مقاود السيارات المفتوحة نوافذها.. وانفجرت فجأة أصوات طلقات متتالية أعقبها ظهور سحابات متفرقة من الدخان الأبيض.. أبى القدر أن لا يشارك الشاهدون الساكنون غبارها، فحملت الرياح تلك السحب في اتجاه مطلقيها عابرة الشارع الذي تحول إلى ضباب خانق لم يفلح معه غلق نوافذ السيارات. وقد حاول قائدوها الهروب من هذا الفخ باتخاذ مسارات جانبية، مما أفسح المجال قليلاً للهروب من الجو الخانق الذي أجبر البعض على الترجل تاركين سياراتهم دون جدوى. وبدأ المترجلون في السقوط والإغماء، واستطاع حسين أن يدخل بسيارته إلى شارع جانبي مرتدًّا إلى منزل حميه. وطرق الباب وقد فوجئت به شهيرة، وقد تملّكها الفزع، من رؤيتها لزوجها وقد احمرت عيناه بعد أن انتفخت كمن تلقّى قبضة من ملاكم عتيد.

- المظاهرات شغالة في جامعة القاهرة والأمن المركزي نازل عجن في الولاد كأنهم غزاة..

هرولت شيماء إلى زوجها تساعده على الجلوس واتجهت شهيرة إلى

صندوق الإسعافات في الحمام ورجعت وهي تحمل قطنًا وزجاجة مياه باردة من الثلاجة وأخذت تمسح عينيه بقطع القطن المبلل، إلى أن بدأ نفسه يرجع إلى صعوده وهبوطه المعتاد.

امتقع وجها شهيرة وابنتها عند سماعهما بوجود مظاهرات في الجامعة وبدأت نظرات تحمل الهلع والخوف ونطقت الاثنتان في صوت واحد:

- حسن..

التقطت شهيرة الموبايل محاولة الاتصال بولدها دون جدوى، وأخذت شيماء تذرع الغرفة جيئة وذهابًا وهي تنظر إلى تليفونها وتحدث نفسها بصوت عالٍ:

- مستحيل يسمع الموبايل لو كان في المظاهرة..

- وأكيد هو في المظاهرة.. إيه العمل دلوقت؟

قالتها شهيرة وهي ترمي بجسدها إلى أقرب فوتيه.

الفخ

في مبنى عتيق قابع في أكثر شوارع القاهرة ازدحامًا وسط البلد.. يجلس رئيس تحرير الجريدة القومية العريقة في مكتبه المكيف في الدور التاسع.. وقد نزع عنه رابطة عنقه المتدلية حول رقبته المكتنزة، يملأ فراغ الكرسي الجلدي الضخم بجسده المترهل، يجاوره مساعده رشدي البايض، وقد تحلَّق حول مائدة الاجتماعات جميع المحررين.

- المظاهرات شغالة وكل مدى بتزيد، والتعليمات واضحة وصريحة: «الأيدي المخربة تعبث في عقول شباب جامعات مصر».

خرجت الكلمات بصوت صارخ من فم كمال سعودي - رئيس التحرير - موجهًا نظراته الآمرة إلى الصحفيين الذين قد وضع كل منهم جهازه المحمول أمامه ليتلقى ما يحدث في مظاهرة الجامعة منذ الصباح أولاً بأول. يكتب كل منهم ما يشاء تحت إمرة كمال سعودي، الذي أكمل حديثه قائلاً وهو يشير إلى رشدي بأن يسجل ما يقال من اقتراحات:

- إحنا يا ريس بنكتب تحت تعليمات سعادتك.. اللي تشوفه يا ريس..

قالها أحد الصحفيين وهو ينظر إلى باقي زملائه طلبًا للمساعدة في تملق رئيس التحرير الذي تناول سيجارة من علبة ذهبية موضوعة أمامه.. وأسرع المجاور عن يساره بإشعال قداحته..

- إحنا يا أستاذ عاوزين نضرب ونلاقي.. يعني نتكلم عن الحرية في التعبير والرأي.. وشبابنا وأولادنا الوطنيين.. ونشرح في نفس الوقت للقارئ إن الجماعة المحظورة وبتمويل أجنبي عاوزة تخرب البلد بعد الاستقرار والرخاء بسياسة الريس الحكيمة.

- إحنا ممكن يا ريس نكتب مانشيت عن «القبض على تنظيم إرهابي ليلة أمس يحوي عناصر إسرائيلية»، وكده نستفز الشعب ونشحنه ضد المظاهرات.

- تمام.. ده يكون مانشيت أول صفحة بعد خبر حصول الهانم على الدكتوراه الفخرية.

قطع الحديث تصاعد رنات الموبايل الخاص بكمال سعودي، وظهر جليًا من اعتداله في جلسته ونبرة صوته المنخفضة المؤدبة أن من يحدثه على الطرف الآخر هو شخصية ذات سلطة وحيثية.. قائلاً:

- تمام معاليك يافندم.. حاضر سعادتك يافندم.. ينفذ يافندم.. طبعة أولى يافندم.. الفاكس وصل حالا يافندم.

لم يترك الطرف الآخر فرصة لكمال سعودي بإنهاء المكالمة، وارتبك قليلاً ووضع الهاتف على مائدة الاجتماع بدخول سكرتيرته تحمل فاكسا يحوي بعض أسماء فقط.. تناولها رئيس التحرير وأطبق لبرهة لم يجرؤ أحد من الموجودين أن يجرح الصمت المخيِّم على المكتب.. ثم التفت إلى رشدي قائلاً:

- جهز لي موضوع عن سقوط خلية إرهابية تهدف لزعزعة استقرار مصر.. في صفحة كاملة.. ودي أسماء العيال.. وانت يا إبراهيم تروح للعقيد محمد بدران وتاخد منه صور العيال وبعض المضبوطات، وتسلمهم لرشدي عشان الموضوع ينزل طبعة أولى.

بدأ الحماس يدب في صوت سعودي مع التعليمات الحديثة التي ألهبت حماس باقي الصحفيين لنيل رضا رئيس التحرير ونيل الحظوة من العاملين على أمن دولة مصر.

تناول رشدي الفاكس بما يحتويه من أسماء وقد أوضح له سعودي أن يكون ميعاد القبض عليهم في نفس يوم المظاهرة، طالبًا منه الاستعانة ببعض التسجيلات لتحقيقات سابقة وما تحتويه من معلومات وأحداث مع تغيير الأسماء والأماكن وإضافة بعض التشويق إليها.

انفض الاجتماع وانصرف كل الصحفيين إلى مكاتبهم لتنفيذ التعليمات،

واتجه رشدي إلى مكتبه يخرج بعض التحقيقات السابقة من ذاكرة جهاز الكمبيوتر، وأخذ يقرأ الأسماء الموجودة بالفاكس وابتسامة تقزز بادية على وجهه، إلى أن تجمد في مكانه ثم قفز واقفاً وقد احمر وجهه وهو يقرأ اسم صديقه «حسن أشرف الطبجي – الفرقة الخامسة – كلية الطب – جامعة القاهرة – محل الإقامة 130 ع شارع المساحة – الدقي».

ارتمى رشدي على مقعده مرة أخرى، وأخذ يفكر في تلك المصيبة التي لم يعلم بها أحد حتى الآن.. ونظر إلى ساعته فوجدها تشير إلى الثالثة بعد الظهر، فالتقط محموله وضغط أزراره وبعد برهة أتاه صوت حسين قائلاً:

- أهلا رشدي..

- انت في الشغل؟

- لأ.. أنا في طريق المطار مع الكابتن وطنط وشيماء.. خير؟

- اسمع الكلام ده.. وما تردتش ورايا حاجة خالص..

وبدأ رشدي في حكي ما حدث في الاجتماع إلى أن وصل إلى اسم حسن ثم سأله:

- هو حسن في البيت؟

- لأ.

- أكيد في المظاهرة.

- طبعا.

خرجت الكلمات مقتضبة قصيرة من فم حسين الذي لفت انتباه الراكبين معه.. وقد عمَّ السكون جوف السيارة إلا من كلمات ناقصة تخرج من فم سائقها.

- طيب وصَّل الجماعة اللي معاك ولما تروَّح كلمني.. هي مراتك مسافرة معاهم؟

- لأ.

- طيب.. سلام.

- سلام.

أنهى حسين مكالمته، ونظر إلى الطريق بعينين شاردتين، وقد بادره أشرف متسائلاً:

- فيه حاجة يا ابني؟

- لأ يا كابتن.. ده في مشكلة صغيرة مع رشدي في الشغل..

- البلد متكهربة ومش عارفين رايحة لفين؟

خرجت تنهيدة قلق من صدر أشرف وهو يلتفت إلى زوجته وابنته القابعتين في الخلف، وصوَّبت شيماء بصرها على وجه زوجها المنعكس في المرآة

الأمامية، وقد بدأ الشك يتسلل إلى قلبها، وإحساسها بأن خطبًا ما قد حدث انتقل إلى والدتها الجالسة بجوارها التي همت بسؤال حسين، لكن زوجها فاجأها قائلاً لابنته:

- أول ما حسن يرجع البيت لازم تكلمي الكابتن عزيز في المطار، وهو هيبلغني في الطيارة.. واحنا أول ما نوصل هنتصل بيكم.

قالها أشرف محاولاً إخفاء قلقه الذي لم يعرف سببًا له على غير العادة، وشعور غريب يراوده ولكنه لم يعرف كنهه، فقد تعوَّد الجميع على خروج حسن للمظاهرات والقبض عليه واستجوابه في مقر أمن الدولة وخروجه ثانية.. وفي طريق العودة بادرت شيماء زوجها قائلة:

- في إيه يا حسين؟

- مفيش حاجة.

- انت مش متعود تخبي عليَّ حاجة.. مكالمة رشدي ليها دخل باخويا..

احتقن صوت شيماء بالدموع، وبدأ حسين يسرد ما قاله إليه رشدي، وأسقط في يدها، وتحول وجهها إلى شحوب الأموات، وحاول حسين جاهدًا أن يهدئ من روعها وهو يحاول أن يتصل ببعض زملائه دون جدوى، مندهشًا من عدم ردهم على اتصالاته المتكررة. تصاعد رنين هاتف شيماء، فإذا به بواب

عمارة أبيها، يطلب منها الحضور لوجود بعض الضباط في انتظارها.

وبمجرد أن هبطت من سيارة حسين الذي حاول أن يركنها موازية للرصيف دون جدوى عندما رأى شخصًا يهبط من سيارة ميكروباص يتبعه آخرون تدل ثقتهم المفرطة على وظائفهم، وهم يتجهون إلى زوجته.. فترك سيارته ووقف حائلاً بينهم وبينها، فتقدم منه شخص عرَّفه بنفسه بأنه ضابط هذه الحملة وهو يحدثه بهدوء وأدب مصطنع بعد أن عرفه حسين بدوره بوظيفته.

- احنا منتظرين حضراتكم عشان نفتش.. ما حبناش نكسر الباب ونعمل دوشة ما لهاش لازمة.

أخرج الضابط يده من جيب بدلته بورقة أعطاها لحسين، ليطَّلع على إذن التفتيش قبل أن يطلبها هو منه.

- ده إذن التفتيش.. ممكن حضرتك تسمحلنا نشوف شغلنا؟

صعد الجميع إلى الشقة، وراعي انتباه حسين أنهم لم يبحثوا في أي من الغرف سوى حجرة حسن، وقد رافقهم إلى داخلها، وتناول الضابط جهاز الكمبيوتر فقط دون أن يفتش باقي الغرفة، واعتذر ثانية لإزعاجهم وخرج يتبعه باقي الضباط والعساكر.

عمَّ السكون الشقة وقد جلست شيماء مذهولة مما حدث لا تقوى على

الكلام، إلى أن قطع الصمت رنين الهاتف، والتقطت شيماء السماعة بلهفة وهي تجيب محدثها قائلة:

- لأ يا أونكل عزيز.. ما وصلش لغاية دلوقت.. حاضر.. أول ما يوصل هبلغ حضرتك.. مع السلامة.

ونظرت إلى حسين المنكمش في مقعده شاردًا.. وهي تسير جيئة وذهابًا أمامه بعصبية.

- أنا هروح أمن الدولة أسأل عليه.

هب حسين واقفًا، وهو يبحث عن جاكت بدلته الملقى أمامه، وحاولت شيماء مرافقته، لكنه تعلل باحتمال أن يطول الأمر ولا يقبل أن تكون هي معه في هذا المكان. واتجه حسين إلى لاظوغلي بسيارته وقد حل الليل.. ولكن كالعادة.. فالشوارع مكتظة لا تفرق بين أيام مظاهرات وأي يوم آخر، كمن تعوَّد على التعايش معها لكثرة حدوثها.

ترك حسين بياناته لضابط موجود خلف مكتب الاستعلامات، بعد أن شرح له ما حدث وطلب منه مقابلة أي مسئول. أعطاه الضابط كارنيه زائر وأمره بتعليقه على جيب قميصه والتوجه إلى المقدم ياسر في الدور الثاني.

- أهلاً حسين بك.

قالها المقدم وهو يقف من خلف مكتبه في استقبال زائره المندهش من هذا الود الغريب، ومد يده مصافحًا إياه، وبعد أن أشار إليه بالجلوس، ضغط على جرس صغير في جانب المكتب ليدخل عسكري يؤدي التحية ويقف انتباه.

- تشرب إيه سعادتك؟

- ملهوش لزوم حضرتك.. أنا جاي أسأل...

قاطعه المقدم قائلاً:

- خلاص.. نشرب شاي مع بعض.

وأشار إلى العسكري بالانصراف، لكنه أتى بعد برهة وجيزة يحمل صينية بها فنجانان من الشاي وكوب ماء مثلج وكأنه كان ينتظر بها خلف الباب. بدأ حسين في سرد الحكاية منذ مكالمة حارس العقار لزوجته وقد أغفل ذكر مكالمة رشدي البايض له. تناول فنجان الشاي ورشف منه رشفة صغيرة وهو ينظر إلى الضابط القابع أمامه المنصت باهتمام وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ودود وهو يقول:

- بس يا حسين بك.. سعادتك عارف الموضوع من الأستاذ رشدي البايض مش من الضابط اللي جالك البيت..

قالها الضابط وهو يتناول فنجان الشاي بدوره ناظرًا إلى وجه حسين الذي

امتعض قليلاً، ثم أجابه:

- مش هو ده الموضوع سيادتك.. المشكلة اننا مش عارفين حسن فين، وإيه التهمة، وإيه حكاية القضية اللي بتتجهزله دي.. حضرتك عارف القانون كويس.. واللي بيحصل ده...

قاطعه المقدم ياسر مرة أخرى بعد أن تبدلت نبرة صوته قائلاً بحدة:

- إحنا بننفذ تعليمات الوزارة يا حسين بك.. والوزارة بتنفذ تعليمات الرياسة.. والرياسة عارفة مصلحة البلد كويس.. ولا يمكن حضرتك شايف غير كده! وانت عارف إن القانون ده بيتطبق هناك.. عندكم.. مش عندنا.

سكت حسين قليلاً ليستجمع أفكاره بعد أن أفهمه الضابط دون حياء بأن يضرب بالقانون عرض الحائط ما دام يتعارض مع المصالح العليا.

- إحنا سعادتك مش عاوزين الولد يتبهدل.. وغير كده هو في آخر سنة في الكلية.. يعني مستقبله هيضيع في قضية زي دي.

- وهو ما كانش عارف ان مستقبله هيضيع لما يخرج في مظاهرات كل شوية..

قطع حديثهما رنين التليفون، فاستأذن الضابط منه.. وخمّن حسين بأن المتحدث هو رتبة أعلى، لردود الضابط عليه بكلمات مقتضبة.

- تمام يافندم.. علم وينفذ يافندم.. تمام سعادتك يافندم..

ووضع السماعة وجلس قبالة حسين مرة أخرى قائلاً وابتسامة عريضة ترتسم على وجهه:

- زيارتك لينا كبيرة قوي يا حسين باشا.. على العموم بكرة الظهر إن شاء الله تقدر تستلم حسن من قسم الدقي.. بس دلوقت بياخدوا منه كلمتين وخلاص، وبكرة يكون في البيت.

انفرجت أسارير حسين لبرهة ثم عبس مرة أخرى عندما تذكر القضية المزيفة وسأل محدثه عنها.. لكنه أفهمه بأن ليس له علم بتلك القضية من الأصل، وإنما تعليمات قد صدرت بإخلاء سبيله بعد القبض عليه لاشتراكه في مظاهرات الجامعة.

بدت علامات الارتياح المشوب بالقلق تظهر على وجه حسين، وقد رافقه الضابط حتى باب مكتبه مسلمًا عليه وهو يفتح له الباب بمودة قائلاً:

- سلامنا للكابتن أشرف وسيادة القبطان سيف الدين.. وإن شاء الله مدام نوال ترجع بالسلامة قريب.

ظهرت ابتسامة شاحبة على وجه حسين، لم يستطِع معها الرد على محدثه سوى بإيماءة من رأسه دون كلمة، وانصرف وإحساس الخوف يملؤه بعد

مقابلته للمقدم ياسر.

تناول تليفونه المحمول بمجرد أن وطأت قدماه سيارته ليتصل بزوجته ليطمئنها على حسن ويبشرها بخروجه غدًا وهو يتصنع الفرح. وبعد أن أنهت شيماء مكالمتها مع حسين اتصلت بالكابتن عزيز ليخبر أباها بأن أخاها على ما يرام وأنه كالعادة سيخلَى سبيله غدًا. اتجه حسين إلى مقر الجريدة التي يعمل بها رشدي، وصعد إلى مكتبه الذي حفظ مكانه لمروره في أوقات ليست ببعيدة، وتفاجأ رشدي عند رؤيته لصديقه يعبر الممر بين حجرات زجاجية وقد انحسرت ستائرها عن جدرانها الشفافة، ونهض رشدي واقفًا من خلف مكتبه ليستقبل صديقه قائلاً:

- عملت إيه يا حسين؟

قالها رشدي بلهفة وقلق وهو يتأبط ذراع صديقه إلى داخل مكتبه، ثم أنزل الستائر لتخفي زائره عن عيون المارة.

- الموبايلات كلها متراقبة يا رشدي.. خلِّي بالك.

وبدأ حسين في حكي ما حدث منذ أن أخبره بالأمر المشئوم حتى حضوره إليه، وأسقط في يد رشدي، وبدأت التساؤلات تومض في عقله.. وقد نسي أن يطلب فنجان القهوة كعادتهما.. فما الداعي أن يطلب منه رئيس التحرير أن

يكتب هذا التحقيق الصحفي إن كانوا يعلمون بعلاقته بحسن؟ ولماذا حتى الآن لم يُصدر أمرًا بإلغاء الخبر؟ بل بالعكس.. هناك تأكيد على صدور التحقيق كما اتفق عليه مع صور المتهمين كما يدعون. بدأت التساؤلات تراود رشدي دون أن يجد إجابة لها.

- الموضوع مش مريح يا رشدي.. فيه لعبة بتتعمل.. بس إيه هي؟

- المشكلة إن أساليب الناس دي وسخة يا حسين.. ما تقدرش تخمن معاهم أي حاجة.

- طيب والعمل؟ حسن هيخرج بكرة زي الضابط ما قال.. وكمان مفيش قضية ازاي؟ يمكن مش هيطلعوه بكرة؟

قالها حسين وهو يحدث نفسه أكثر مما يحدث صديقه، وأخذ الاثنان في التفكير بصوت عالٍ، ويضع كل واحد منهما احتمالاً لا يستطيع الآخر نفيه أو تأكيده.. وتصاعد رنين الهاتف المحمول في جيب حسين وقد وجد اسم محمد الطبجي يومض على شاشته البيضاء، ليسمع صوت محمد يأتيه صارخًا، وقد علم من عمه ما حدث عند وصولهما إلى «بلنسية». فأراد أن يطمئن من حسين الذي لم يستطِع أن يخفي قلقه مما دار بينه وبين الضابط ثم أعطى رشدي التليفون ليكمل معه باقي الأحداث. أنهى محمد المكالمة بعد أن طرأت فكرة في رأسه، ليطلب صديقًا له في شركة البترول، يعمل أبوه لواءً في هذا الجهاز. وانتظر حسين

ورشدي الاتصال الثاني من محمد الذي أتاهما بعد ساعة. ليزف إليهما التأكيد على خروج حسن غدًا كما أخبر الضابط حسين، وأنه لا شيء آخر بخصوص القضية التي خرجت مع أول طبعة من الصحيفة.

اطمأن الصديقان قليلاً من مكالمة محمد وزاد من اطمئنانهما صدور تعليمات من رئيس التحرير بإلغاء التحقيق في الطبعات التالية.. فتنفس كل منهما الصعداء واستأذن حسين ليرجع إلى زوجته التي ينهشها القلق، وفي طريق العودة أخذ يسترجع الأحداث من بدايتها وحس المحقق بدأ يطغى على مشاعر صداقته وعلاقته الأسرية مع حسن، بعد أن شعر بوجود نقطة مفقودة لا يستطيع الوصول إليها، ودبيب الشك «ينغش» قلبه، لكنه طرح شكوكه مؤقتًا لوصوله إلى أسفل بيت حميه.

لاظوغلي

لم يستطِع أن يرى شيئًا من ذلك الغطاء الأسود، الشبيه بما يوضع على رأس المحكوم عليهم بالإعدام، وهو واقف في حجرة رطبة تفوح رائحة العفن منها.. وبعد أن ثبتته يدان غليظتان بعنف في منتصف الحجرة، أغلق الباب بعنف تردد صداه، حتى ليوحي بخلو الغرفة من أي شيء.. وبعد أن بدأت ساقا حسن في التعب من شدة قيود يديه من الخلف وتثبيتهما بقدميه.. سمع صوتًا فجأة يأتيه من خلفه قائلاً بهدوء:

- ازيك يا حسن..

لم يرد حسن.. بل تحرك رأسه حوله ببطء، يستثير أذنيه المتتبعتين لخطوات صاحب الصوت الذي اقترب منه، وأردف مرة أخرى:

- ما تخافش.. دي أول مرة تيجي عندنا.. عشان كده أنا هكلمك زي أخويا الصغير.. خليك في دراسة الطب بتاعتك.. كلها سنة وتتخرج يا دوك.. ويا ريت مالكش دعوة بحاجة تاني.. البلد مش ناقصة.. فيها اللي مكفيها.. وخلينا نشوف شغلنا مع أم دقون متحنية.. أنا عارف انك ذكي، وعشان كده مش عاوز

أشوفك تاني؛ لأن لو شفتك هبعتك معتقل المغول.. وده مكان بنبعت فيه الناس اللي عاوزين ننساهم.. خلاص يا حسن يا هلالي؟!

وسكت صاحب الصوت، وعمَّ الغرفة الصمت الثقيل، إلا من وقع قدمي المتحدث الذي أخذ يلف بهدوء حول المربوط أمامه كمن يستكشف أثر حديثه.

- بس يا حضرة الظابط أنا ما عملتش حاجة غلط..

نطق حسن أخيرًا بصوت واهن، بعد أن اطمأن بسذاجة إلى صوت محدثه، الذي تغيرت نبرته من الهدوء إلى الصلف والاستهزاء..

- أنا مش ظابط يابني.. أنا بدران.. بدران يا حسن يا هلالي.. ومش عاوز أشوفك هنا تاني.. انتهى.

أخرست الكلمات ذات الأسلوب المسرحي حسن.. ولم يفهم معنى معتقل المغول وهذا اللقب الذي أطلقه عليه الضابط، وانتشلته تلك الأيدي الغليظة مرة أخرى لتدفعه إلى خارج الحجرة وهو يحاول أن يساير الساحبين له في خطواتهم دون جدوى، إلى أن قذفوه في جوف سيارة بدأت تسير طويلاً وقد بدا صخب الشوارع وضجيج السيارات يقترب بوضوح من مسامعه إلى أن توقفت السيارة، ثم سمع صرير البوابة الحديدية تنسحب على صفحة الأرض.. تلقفته يد أقل خشونة من سابقتها بعد توقف السيارة وأخيرًا فكت قيوده وألقي في غرفة أخرى

بعد أن نزعت عنه عصابة العينين.. ولكن هذه المرة كانت مكتظة بأشكال وأنواع من البشر..

ولم يمكث فيها طويلاً.. حيث نادى عليه أحد العساكر واقتاده إلى صول يقبع خلف مكتب إيديال من الصاج، يفصل بينه وبين المقعد الجالس عليه ذلك الكرش المنتفخ الذي يحاول الهروب من أزرار البدلة السوداء.. انتظر حسن في هذه الغرفة، ونظرات التهكم والسخرية بادية على وجوه العساكر والمخبرين الذين تلتقي عينه بأعينهم، وهو لا يدري بما يحدث في الدور العلوي في مكتب ضابط المباحث بقسم الدقي، فقد جلس حسين يرتشف قهوته وهو يستمع إلى أحاديث الضابط عن أحوال البلد، واشتداد الظروف الأمنية، وضغط العمل الواقع على كاهل الداخلية، يتجاوب معه تارة بإيماءة من رأسه وتارة أخرى بحديثه عن كمِّ القضايا التي يحقق فيها وتنوعها من قتل لأسباب تافهة أحيانًا، وسرقة لها دوافعها التي يعجز أن يمنع تعاطفه مع الجاني أحيانًا أخرى.

إلى أن دلف عسكري بعد أن نقر الباب وأدى التحية العسكرية معلمًا الضابط بقدوم سيارة الترحيلات من أمن الدولة. أشار الضابط لضيفه بالانتظار في المكتب حتى يتسلم المرحَّلين وينهي إجراءات ورقية للإفراج عنهم، وبعد ساعة من الزمن، رجع الضابط يرافقه حسن وقد نهض صديقه فاتحاً ذراعيه له، محتضنًا إياه، وعبارات الشكر والثناء تخرج من فمه وهو يصافح الضابط مغادرًا

مقر القسم المعلق أعلاه لافتة عريضة مكتوب عليها: «الشرطة والشعب في خدمة الوطن».

وفي السيارة المتجهة إلى المنزل بدأ حسين كلامه وهو ينظر إلى الطريق قائلاً:

- مش كفاية يا حسن؟ عمرك بيضيع، وانت مش داري.. شوف زمايلك خلصوا جامعة واشتغلوا وبدأوا حياتهم..

قاطعه حسن بتنهيدة عميقة شقت صدره قائلاً:

- إحنا مش أحسن من اللي راحوا واستشهدوا عشان خاطر تراب البلد يا حسين.. ومش...

صرخ حسين في وجه حسن وهو يلتفت إليه بعصبية قائلاً بحدة:

- إحنا مش في حرب.. لما كل الشباب يعملوا زيك.. مصر هتخرب.

- إحنا في حالة أصعب من الحرب.. إيه معنى الناس مش عارفة تتعالج.. أمراض الدنيا مسكت في بدنهم.. صابت الغني والفقير، الناس بتنسرق عشان تاكل مش عشان تصيِّف في بلاد بره زي العصابة اللي بتنسرق كأنها عزبة ملهاش صاحب.. في رجالة شفتهم في الحجز عشان كانوا واقفين بعربية طماطم في الشارع.. ناس هتدخل السجن عشان كمبيالة بألف جنيه تمن قسط غسالة لجوازة

بنت.. ما تبصش للناس اللي زينا.. إحنا كام سنة وهنبقى زي الناس دي يا حسين.. وهنبقى بهايم في جنينة الريس وابنه.. مصر كانت عاملة زي البرنسيسة، واحد صايع ضحك عليها واتجوزها وكتب عقد مزور.. وصوَّرها معاه على السرير عشان يكسر عينها.. وبعد كده شلحها في الشارع.. عارف مين قاللي كده؟ واحد من البلطجية في الحجز.. كفاية يا حسين.. بقينا عرة قدام العرب.. ومسخرة قدام الأجانب.

أطبق حسين وهو لا يجد ردًّا على حسن الذي ترقرقت عيناه بالدموع، وعمَّ السكون في السيارة إلى أن وصلوا إلى أسفل العمارة. وهرولت شيماء إلى باب الشقة تفتحه، بعد أن رأت سيارة زوجها وهي تسكن أسفل الشجر العتيق في الشارع الهادئ، ونزلت تستقبلهما على السلم وهي تفتح ذراعيها، تحتضن شقيقها ذا الوجه الأغبر الأشعث، وبمجرد أن دخل ثلاثتهم إلى جوف الشقة هرولت لتحدث والديها، مطمئنة إياهما على أخيها الذي تناول التليفون منها وهو يضحك مع أبيه مداعبًا له:

- انتو اتعودتوا على كده يا دادي.. مفيش مشكلة.. لأ أنا كويس.. أهلا مامي.. وحشتيني.. هاتي طنط أكلمها..

وأخذ حسن يحدث والديه ثم عمه ثم زوجته، يداعبهم تارة ويسأل عن أحوالهم تارة أخرى، ثم اطمأن على ابن عمه والدعوات الصادقة تخرج من

صدره، ولم يلحظ شرود حسين القابع في فراغ الفوتيه، تنهش الأفكار السوداء عقله كالكلاب الضالة المتحلقة حول وليمة شهية.

الخازوق

أشارت عقارب الساعة، المعلقة في مكتب رشدي البايض بمبنى الجريدة، إلى الثانية عشرة مساءً، فنهض حاملاً جاكت بدلته على ذراعه، وغادر مكتبه إلى الجراج، وشرد ببصره وهو قابع في سيارته.. إلى أن يرتفع مؤشر حرارتها قليلاً.. إلى تلك الأعمدة الخرسانية التي ترقد فيما بينها أعداد قليلة من سيارات بعض زملائه الذين لم ينتهوا من أعمالهم حتى الآن، ثم تحرك بالسيارة ببطء خارجًا إلى شارع جانبي، تكتظ السيارات المرتكنة على جانبيه، متخذًا بعض الشوارع الخلفية مسارًا له، ليتجنب زحمة السير في شارع الجلاء. ولكن فجأة برزت من بين السيارات المرتكنة في الظلام سيدة مرتدية عباءة سوداء ألقت بنفسها على مقدمة سيارته، وقد تطاير الغضب من عينيها المصوبتين تجاه رشدي، الذي ضغطت قدمه اليمنى بحركة لا إرادية على دواسة الفرامل.. وأخذت السيدة تخبط بيدها على مقدمة السيارة وهي تكيل له الشتائم والسباب الذي لم يعرف له سببًا، وبمجرد أن وطأت قدمه خارج سيارته محاولاً استكشاف تلك الثورة العارمة، ظهرت له أربعة أجساد ضخمة من بين سواد

الليل كما ظهرت تلك السيدة، وأخذ أحدهم ذراعه مثبتا إياها خلف ظهره وبدأ الثلاثة يكيلون له اللكمات والركل في أنحاء جسده المتكوِّم على الأرض منذ الضربة الأولى التي أصابت معدته، وكما ظهر الأربعة فجأة اختفوا فجأة تاركين جسد رشدي مفترشًا الأرض لا يقوى على الحراك، وقد تبادل مكانهم فتاة محجبة وشاب نحيف، أخرج تليفونه المحمول متصلاً بالنجدة التي أتت في وقت أقل ما استغرقه الأربعة في تكسير عظام وضلوع رشدي.

هبط ضابط تزين نجمة واحدة كلتا كتفيه، يتبعه اثنان من العسكر، تحلقوا حول الجسد الراقد على الأرض، وأخذت الفتاة وأمها في البكاء والعويل متهمتين المصاب بمحاولة جذب الفتاة إلى السيارة لولا وجود الشاب الذي حاول أن يمنعه. وسأله الضابط عمن أصاب المتهم، فأوضح له أنه لولا أولاد الحلال ما كان باستطاعته إنقاذ تلك البريئة من نزوة الراقد على الأرض، الذي يشك في سكره وعدم وعيه. حاول أحد العساكر أن يساعد رشدي على النهوض دون جدوى، فقد تورمت عيناه وتحولت إلى كتلتين من الدماء، وتكسرت بعض ضلوع صدره وذراعه اليسرى. فاستدعى الضابط سيارة إسعاف حملته إلى المستشفى محاولين إسعافه. استغرقت الخطة التي فطن إليها رشدي لسذاجتها بمجرد أن بدأ البلطجية عملهم إلى أن دخل المستشفى ثلاث ساعات، حاول خلالها أن يتصل بحسين الذي لم يجب على مكالماته، وأرجع السبب إلى خلوده للنوم مبكرًا، دون

أن يعلم أن هناك في الدقي كانت أحداث أخرى تجري؛ فقد توقفت سيارة ميكروباص بيضاء تحمل لوحات تجارية أمام منزل عائلة الطبجي، هبط منها سبعة أشخاص بزيهم المدني، لم يستطِع الحارس أن يتبين وجهتهم أو سؤالهم بمجرد أن أزاحه أحدهم عن الطريق وقد أشار إلى آخر بالبقاء إلى جانبه، وصعد الستة إلى الشقة المنشودة، ووضع أحدهم إصبعه على الجرس حتى انفتح الباب عن وجه حسين الذي بدت آثار النوم والانزعاج عليه، وقد أزاح أحدهم الواقف أمامه كما فعل مع البواب وقد خرجت شيماء بقميص نومها القصير مرتجفة وأعقبها خروج حسن من غرفته ليفاجَأ بشل حركته ووضع عصابة على عينيه، وقد حاول حسين أن يوقفهم ويطلب منهم أمر القبض وأخذ يتوعد دون جدوى.. فقد انصرفوا دون كلمة كما جاءوا، فهُم يعلمون ماذا يفعلون دون تبرير لما يحدث، وقذفوا حسن داخل الميكروباص الذي انطلق بسرعة مختفيًا عن أنظار حسين الواقف ببيجامته في منتصف الشارع بجوار الحارس الفاغر فاه في ذهول وشيماء الناظرة من البلكونة تغطي وجهها الدموع وقد هربت الدماء منه.

ارتدى حسين بدلته وطلب من زوجته المكوث في البيت بعد أن وعدها أن يخبرها بما يحدث في التليفون أولاً بأول، واتجه إلى قسم الدقي محاولاً استكشاف ما يحدث دون فائدة، فقد قابله ضابط نوباتجي مخبرًا إياه بعدم خروج حملات من القسم.. أو حتى القبض على أي مشتبه بهم في تلك الليلة

الهادئة حتى الآن. انصرف حسين وهو يعلم وجهته التالية إلى لاظوغلي.. وكما حدث في المرة السابقة، فقد تم تسجيل بياناته ودلف إلى الضابط شارحًا له ما حدث وقد علت الدهشة والاستغراب وجه الضابط وقد جحظت عيناه في ذهول وهو يستمع إلى محدثه باهتمام، إلى أن أنهى حسين روايته. فنهض الضابط متخذًا جلسته في مواجهة محدثه قائلاً:

- إيه الكلام ده يا حسين بك؟ مش معقول الكلام ده يحصل.. انت بتقول إيه؟

قالها الضابط وقد اختلطت علامات الدهشة بالغضب وهو يتناول الريموت كنترول ويضغط زر تشغيل شاشة التليفزيون الموضوعة وسط مكتبة أنيقة تتراص الصور التذكارية والميداليات والأنواط على رفوفها، ويظهر وجه المذيع المألوف، الخاص بإعلان الأخبار العاجلة، قائلاً على خلفية مشهد عربة ترحيلات وقد ثقبت طلقات الرصاص جوانبها كالمصفاة بعد أن انقلبت على جانبها:

- «وقد تم العثور على جثة أحد الجناة الذي يحمل وجهه ملامح إحدى الدول الآسيوية، بعد تبادل إطلاق النار مع بعض الخارجين عن القانون لتهريب سبعة وثلاثين متهمًا في قضية الخلية الإرهابية، وقد أصيب الضابط المسئول عن الحراسة واستشهد مجندان، ونجح في الفرار ستة وثلاثون متهمًا وقتل آخر..

وقد وافتنا وزارة الداخلية بأسماء الهاربين.. وهم كالتالي...».

وأخذ المذيع يذكر الأسماء المقترنة بالصور والسن والجنسيات المختلفة، حتى ظهرت صورة حسن وبياناته بين أسماء الهاربين.. وظهرت موسيقى صاخبة معتاد عليها، بعد أن أنهى المذيع قراءة الخبر العاجل، وانتظار بيان آخر من وزارة الداخلية ودعاءه: حمى الله الوطن.

لم يصدق حسين ما رأى.. ونظر إلى الضابط الذي ما زالت علامات الاستنكار بادية على وجهه، ولم يدرِ ماذا يفعل أو يقول وقد ألجم الغضب لسانه، بعد أن أيقن صدق هواجسه التي تراوده منذ أمس، ونهض دون أن يلتفت إلى محدثه مغادرًا المبنى الشهير في ذهول، غير مصدِّق لما يحدث، وهو القاضي الذي مرت عليه تحقيقات وقضايا تحمل تفاصيل أغرب من الخيال.. لكن لم يصل عقله أبدًا إلى هذا المخطط الإبليسي من جهة من كان يعتقد أنها آخر حائط صد يحمي الضعفاء، وقفل راجعًا إلى بيت حميه واجماً، لم يرد على أسئلة شيماء التي أخذت الحيرة والخوف ينفضان جسدها بعنف..

تصاعد رنين الهاتف بمجرد أن رمى حسين جسده على أقرب مقعد قابله، ليأتيه صوت أدهم اللبروس زاعقاً:

- في إيه يا حسين؟ إيه اللي أنا سمعته في الموجز ده؟ حسن فين؟ ألو.. يا

حسين رد عليَّ.

اختنق صوت حسين وهو يحاول جاهدًا أن يسرد له ما حدث باختصار، وقذف السماعة من يده عند رؤيته شيماء تسقط على الأرض مغشيًّا عليها عند سماعها ما حكاه زوجها، وحاول إفاقتها بعد أن حملها إلى غرفتهما، أتى لها بكوب من الماء ينثر رذاذه على وجهها إلى أن فتحت عينيها قائلة:

- أخويا ضاع.. أخويا ضاع يا حسين..

وانفجرت في بكاء ونحيب، لم يجد معهما بدًّا من استدعاء طبيب من أصدقائه، الذي أتى مسرعًا بمجرد أن سمع نحيب شيماء، وبعد أن غرس في ذراعها حقنة مهدئة أسلمتها إلى النوم، رافقه حسين إلى الصالون وقد أخبره باقتضاب بما حدث، وانتفض وقد تذكر أدهم، والتقط السماعة وهو يحاول أن يتصل به.

- اقفل دلوقت يا حسين.. أنا في الطريق دلوقت.. أول ما هوصل هكلمك.

وأنهى أدهم المكالمة دون أن ينتظر جواب حسين الذي اعتذر لصديقه الطبيب، وقد وقف مستأذنًا في المغادرة بعد أن طمأنه على زوجته، وهو يخفي ارتباكًا واضحًا، متعللاً بصدمته لما سمعه منه.

لم يتوقف رنين الهاتف المحمول وتليفون المنزل بالتبادل بين حسين وأدهم ورشدي، الذي وجد مكالمة من أدهم وهو يحثه على الذهاب إلى صديقهم

قبل أن يعرف ما أصابه.. فاستأذن أدهم بمكالمة أخرى من حسين ليذهب إلى رشدي في المستشفى بعد أن أخبره بما حدث، وفوجئ حسين بمكالمة من حميه، وقد علا صوته الغضب والخوف وهو يسأل عن ابنه بعد أن وجد صورته وآخرين في عناوين البرامج الإخبارية، ويتضح صوت شهيرة وهي تولول طالبة من أشرف أن يرجع بها الآن إلى مصر. لم يعرف حسين كيف يطمئن حماه سوى محاولاته أن يتصل ببعض معارفه في القضاء وبعض الضباط ليعرف ما حدث، لكن الإجابة كانت تأتيه متطابقة في كل مرة، بعد أن يعاودوا الاتصال به:

- ما نقدرش نعمل حاجة.

المؤامرة

تحتك إطارات الطائرة وهي تهبط على الممر محدثةً ذلك الصوت المألوف، وفي صالة الاستقبال كان حسين وشيماء ينتظران شهيرة وأشرف اللذين كانا يستعجلان الزمن ليصلا إلى القاهرة، بدا شحوب الأم والابنة اللتين ارتمتا في أحضان بعضهما، وليحسبهما الناظر إليهما أن الدموع المنسابة هي دموع اللقاء وليست دموع الحسرة على ابن واخ مفقود. واتجه أربعتهم إلى السيارة وقد باغتهم أشرف قائلاً:

- بعد ما ننزل الشنط يا حسين نطلع على وزارة الداخلية.. لازم أقابل الوزير..

خرجت الكلمات واهنة من فم أشرف، وقد زاغت عيناه مع سرعة السيارة من شدة التعب، وظهرت ارتعاشات على عضلات وجهه، ولاحظ حسين علامات الإجهاد البادية على حميه، محاولاً أن يثنيه عن فكرته الآن، حتى يستريح ويستجمع قواه ليستطيع أن يرتب أفكاره عند لقائه المسئولين في الوزارة، وبعد إلحاح وضغط من شهيرة التي اقتنعت بفكرة حسين، وافق أشرف على

مضض متفقاً مع زوج ابنته أن يستعد لمرافقته في المساء.

هبط الأربعة من السيارة أمام المنزل العتيق، وهرول البواب إلى مخدوميه مرحبًا بهم في انكسار ظهر جليًّا على وجهه المطاطأ للأرض وهو يحمل الحقائب، يتبعهم إلى باب الشقة.. تذكر حسين ضرورة الذهاب إلى رشدي للاطمئنان عليه، فاستأذن وغادر إلى شقة صديقه في المعادي..

انفتح الباب، بعد أن ضغط على جرسه، عن وجه أدهم الذي فتح ذراعيه مرحبًا بحسين الذي بادله الأحضان والقبلات، ثم سأله عن رشدي، الذي كان يغط في نوم عميق بعد تلك الحادثة المشئومة، جلس الصديقان وقد خرجت الكلمات ثقيلة مهمومة، وبدا التأثر الواضح على وجه أدهم وإشفاقه على حسن الذي لا يعلم مكانه سوى الله وضباط أمن الدولة.

- أنا خايف قوي على حسن.

قالها أدهم وهو ينفث دخان سيجارته في فراغ الصالة الواسعة..

- البلد بتغلي يا أدهم.. الحكومة مش عاملة حساب للناس خالص.. ودي حاجة تخوف..

خرجت الكلمات هادئة من فم حسين وهو يتناول سيجارة من علبة أدهم، مشعلاً له رغمًا عنه لأول مرة، وأكمل قائلاً:

- فاكر صالح عبد العزيز زميلنا في كلية الزراعة اللي كان ساكن مع أحمد صقر في شارع علوبة في أسيوط؟

أومأ أدهم برأسه بالإيجاب، وقد ارتسمت علامات الفزع والخوف عند ذكره له، وهو يستمع إلى كلام محدثه:

- انت عارف إن أهله لغاية دلوقت مش عارفينه فين.. حتى إنهم اعتبروه مات.

- الموضوع ده بقالوا أربعتاشر سنة يا حسين.

- أنا خايف ليتكرر السيناريو مع حسن.

عمَّ الصمت المكان بعد كلمات حسين، وقد تاهت أعينهما في سقف الصالة، ولم يقطع سكونهما سوى صوت رشدي الخارج من غرفته وقد وُضعت ذراعه في جبس أبيض ويحملها حزام حول رقبته وصدره ملفوف حوله أربطة محكمة الشد.

- أهلاً حسين..

قالها رشدي وهو يحاول الجلوس على الكنبة المقابلة لهما بمساعدة أدهم:

- وقفوك عن العمل ولا لسه؟

باغته حسين بسخرية وقد ارتسمت على وجهه علامات الاشمئزاز، وتنهد رشدي وهو يحاول أن يتناول سيجارة من يد أدهم قائلاً:

- يا ابني جواب الوقف وصل الصبح كأنه متحضر من أسبوع..

- طبعًا هيبقى فيه صلح مع الفاجرة وبنتها والمحضر يتحفظ.. لكن هتتحول لمجلس تأديب في الجورنال وبعدين فصل.. تمام؟

قالها أدهم كمن يعلم السيناريو المبتذل وقد تعالت ضحكات الثلاثة المرورة من حناجرهم، وأردف رشدي قائلاً:

- أنا اللي مأثر فيَّ انهم عملوا خطة قديمة قوي، اتحفظت في الأفلام العربي كلها، يعني هما متخيلين إني غبي للدرجة دي! ولا أنا قليل في نظرهم ومستكترين إنهم يفكروا ويتعبوا نفسهم في خطة مودرن شوية؟!

نظر حسين إلى صديقه مواسيًا له قائلاً:

- احمد ربنا إنهم ما شافوش مصيبة على مقاسك.. يمكن في الحالة دي ما تكونش قاعد وسطنا دلوقت.

- الحمد لله يا رشدي.. وربنا يستر على اللي جاي.

قالها أدهم وهو ينظر إلى حسين الذي نهض وقد وضع يده خلف ظهره وهو يحدثهم قائلاً:

- كل حاجة اترتبت صح.. خبر في الطبعة الأولى عن خلية إرهابية.. وبعدين هروبهم بعد مقتل كام عسكري وإصابة ضابط عشان يكسبوا تعاطف الناس.. وقرصة ودن لرشدي.. وتنهد قليلاً ثم أردف: بس إيه الجبروت ده؟! عساكر تتقتل وظابط كان ممكن يروح فيها!

تنهد الحاضرون وقد تناول حسين جاكت بدلته وهو يهم بالمغادرة، وإلحاح رشدي طالبًا منه البقاء ليتناول الغداء معهما كما في سابق أيامهم، لكنه اعتذر للظروف المعلومة في بيت حميه، وانصرف بعد أن أكد عليه أدهم متابعتهما لما يحدث، بعد المقابلة المرتقبة مساء في وزارة الداخلية.

تلونت سماء القاهرة باللون الأحمر المشبع بتراب أسود بعد أن بدأت خيوط الليل تهبط منسدلة على مساكنها، وهبط أشرف وحسين من السيارة متوجهين إلى البوابة الحديدية الضخمة وبعد تسجيل بياناتهما، والغرض من قدومهما، دلفا إلى المبنى متجهين إلى الدور الرابع كما أخبرهما من يقف على البوابة، المدجج بسلاح مخفي أسفل جاكت بدلته.

انتظر أشرف وحسين أمام باب معلقة عليه لافتة نحاسية لامعة، مكتوب عليها بحروف سوداء «العميد ياسين رافع» حتى أشار إليهما العسكري بالدخول بعد استئذانه من ضابطه القابع خلف مكتب عريض، تنتصب في إحدى جنباته شاشة كمبيوتر مضيئة، وقد وضعت بعض الملفات الملونة والمرصوصة على

الجانب الآخر من المكتب ذي اللون الأبنوسي المحتل مساحة ليست بكبيرة في الغرفة الفاخرة الواسعة، تفترش سجادة إيرانية حمراء بين طاقم الأنتريه الجلدي ذي اللون البني الذي تواجهه مكتبة تحمل أرففها كتبًا ومراجع ذات أغلفة زاهية، ويحتل النصف الآخر كئوس وميداليات في علب قطيفة حمراء وزرقاء وقد نقشت على قوائم المكتبة الأبنوسية بخط إسلامي شديد الحرفية أول حرفين من اسم العميد ذي الشعر الأبيض الكثيف الناعم والمصفف بعناية، ترقد نظارة طبية فضية الإطار على أنفه الصغير المدبب، ووجه ناصع البياض، الذي يحسبه الناظر من أول وهلة أنه شخص أجنبي قادم من بلاد لم تطلع الشمس على أهلها أبدًا.

نهض العميد بمجرد أن دلف أشرف وحسين إلى الداخل وقد هبت في وجهيهما نسمة باردة من التكييف على الرغم من برودة الجو بالخارج، تحمل معها رائحة عطر رجالي بسيط ينم عن ذوق أرستقراطي..

- أهلاً أهلاً كابتن أشرف.. أهلاً حسين بك.. اتفضلوا.

مدَّ العميد يده وهو يصافح كلاً منهما بحرارة ومودة، مشيرًا إليهما بالجلوس بعد أن تقدمهما إلى صالونه الفاخر، وانفتح الباب عن شاب أنيق، يلبس بنطالاً أسودَ وقميصًا أبيضَ، تعلقت بجيبه قطعة بلاستيكية ذهبية اللون مكتوب عليها اسمه، ونظر إليه العميد قائلاً وهو يعود ببصره مرة أخرى إلى

ضيوفه متسائلاً:

- البهوات يشربوا إيه؟

وبعد إلحاح إنصرف الشاب ورجع بعد دقائق حاملاً صينية تتراص عليها فناجين القهوة وأكواب من الكريستال المنقوشة حوافه لتزيده ثراء، بجوار زجاجة مياه مثلجة ملفوفة بقطعة من ورق «الكلينكس». ترك أشرف لحسين مهمة شرح ما حدث منذ البداية حتى النهاية للعميد الذي استمع باهتمام شديد وهو يمسك بورقة وقلم ويدوّن بعض الأسماء والملاحظات التي يرددها حسين.

وبدأت علامات الارتياح تراود أشرف الذي أحس باهتمام العميد بما يقوله حسين، وقد ساعدته مهنته على ذكر كل تفصيلة ولو صغيرة، موضحًا إياها لسامعه.

معتقل المغول

دلف شخص طويل القامة نحيف الجسد، يدل المعطف الأبيض الذي يرتديه على مهنته، وألقى بتحية إلى بدران كأنهما صديقان لا يعيران بالاً للشكليات المقيتة. نظر إليه بدران وبدت على وجهه علامات الفرح وهو يقول:

- تلات عمليات في شهر واحد؟ حاجة تشرح القلب يا فؤاد.

تحسس فؤاد إطار نظارته الطبية السميكة وهو يعدل من وضعها على عظمة أنفه «المفلطحة»، وارتسمت ابتسامة صفراء على وجهه النحيل وهو يجيب وعلامات الزهو واضحة في نبرة صوته:

- طبعا يا بدران.. إحنا مش بنلعب يا باشا، بس في طلبيتين مستعجلين عليهم قوي في إسبانيا.. واحدة فص كبد والتانية كلية.

- والمواصفات وصلت ولا لسه؟

- الناس دي ما بتهزرش.. قبل ما يتصلوا بيبعتوا المواصفات كاملة عن طريق مستر ريدفرن.

- أعداء الوطن كتير عندنا.. اختار اللي انت شايفهم ينفعوا.

قالها بدران بأسلوبه المسرحي كعادته، مستعيرًا بعض الجمل من أفلام عربية قديمة، يعشق مشاهدتها في ساعاته الطويلة بداخل هذا المبنى المخيف. ويتناول قرصًا من الحلوى من درج مكتبه ونظرة فؤاد إليه كمن يهم بطلب شيء، لكنه تردد عند التقاء عينيه عيني بدران الخاليتين من الحياة، الذي باغته قائلاً:

- زيادة في الفلوس ولا حد مزعلك وعاوز تضايقه؟

قالها بدران وهو ينهض، واضعًا ذراعه على كتف صديقه الطبيب المكلَّف بمتابعة حالة المعتقلين في جلسات التحقيق واستخلاص المعلومات منهم.

- والله مش عارف بصراحة جشع الشركات العقارية ده إيه حكايته؟

وحك عنقه وهو يتجه إلى الباب برفقة بدران المنصت إليه.

- دفعت نص تمن الفيلا في ستة أكتوبر والشركة عشان هتسلمني قبل الميعاد عاوزة باقي المبلغ.. طيب أنا هجيب من فين؟ أسرق يعني؟

ضحك بدران وقد خرج الاثنان إلى ممر طويل ضيق، تتدلى من سقفه كشافات تنعكس أضواؤها الصفراء على جدران إسمنتية مسمطة كأنها مخابئ حربية في العهود النازية. وفي صندوق مصعد يتجه إلى باطن الأرض، أشعل فؤاد سيجارة وهو يرمق بدران الذي صمت برهة ثم أجابه قائلاً:

- هاتلي بيانات الحجز واسم صاحب الشركة واعتبر أن الفيلا بتاعتك خلاص.

- بس الفيلا باسم مرات أخويا..

لم يتركه بدران يكمل جملته بانفتاح باب المصعد، وقاطعه قائلاً بعصبية:

- خلاص يا فؤاد.. زي ما يكون صاحبها.. هاتلي البيانات وانهي الموضوع.. هي شركات المباني هتتفقر لو ما دفعتش باقي الفلوس يعني! خلينا نشوف شغلنا بقى.. في طلبية وصلت امبارح عاوزك تنقي اللي شايفهم ينفعوا عشان نخلي بالنا منهم وما نزودش العيار معاهم.

وأشار بدران إلى باب غرفة ضخم، وضعت عليه علامة حمراء، يعتبرونها غرفة استقبال للنزلاء، يقبع فيها بعض الشباب المعصوبة أعينهم، يغيب نصف وعيهم عمّا يدور حولهم، وأخذ الطبيب يتفحص وجوهًا شاحبة، تتجاور أجسادها كأنهم أعواد ثقاب في علبتها الضيقة، اقترب الطبيب من أحدهم وأشار إلى أحد المخبرين ليحمله إلى غرفة الكشف الملحقة بالمبنى الضخم ذي الدهاليز، كمتاهة يجب الحذر في السير من خلالها. رمى المخبر الجسد شبه الغائب عن الوعي على منضدة تشبه تلك الموجودة في مشارح المستشفيات وغادر

الغرفة بأمر من الطبيب الذي تناول سرنجة غرسها في وريد المدد أمامه ساحبًا الدماء حتى امتلأت، ثم نقل ما تحتويه إلى أنبوبة اختبار مغلقة بسدادة بلاستيكية، كتب عليها رقمًا وحرفًا. وبالمثل فعل مع باقي الموجودين في الغرفة ذات العلامة الحمراء.

ترك بدران صديقه لكي يبدأ عمله، واتجه إلى غرفة التحقيق المجاورة له، وشمر عن ساعديه وتناول رشفة من زجاجة المياه المثلجة الموضوعة على كرسي خشبي في آخر الغرفة، وتنهد بعمق ثم أشار إلى المخبر المصاحب له بأن يأتي بأول متهم قد انتهى الطبيب من إفاقته في غرفة الاستقبال.

رجع المخبر وهو يسحب شابا مشوش الذهن بصعوبة تحمله قدماه، وقد قُيِّدت يداه من الخلف وهو ينتصب عاريًا.. إلا مما يستر به عورته.. في منتصف الغرفة.

- أنا قولت لك مش عاوز أشوف وشك تاني يا حسن يا هلالي..

قالها الضابط بصوت رخيم وكأنه يغني وهو يذرع الغرفة الرطبة جيئة وذهابًا، وصوت كعب حذائه يتردد في أذني حسن المعصوبة عيناه.

- لو تفتكر آخر مرة قلتلك على معتقل المغول.. انت ما صدقتنيش وعملت نفسك ثورجي.. وطلعت في مظاهرة الكلية مع العيال بتوع ستة أبريل

تاني..

تغيرت حدة صوت الضابط وهو يردد باستنكار وسخرية:

- آه.. ستة أبريل.. يا ابني دول ناس غبية.. في حد يعمل نفسه وطني ويختار شهر الكذب عشان يسمي به الهبل ده.. ستة أبريل.

وخرج صوت من منخاره وهو يشهق الهواء إلى صدره وقد تعالت ضحكاته في جنبات الغرفة، وأشار الضابط إلى من يقف خلف حسن، الذي انهالت منه الصفعات على مؤخرة عنقه وهو صامت يرتفع رأسه بعد كل صفعة وأخرى دون أن ينبس بكلمة..

- كويس يا هلالي.. طلعت دكر.. بس لما نشوفك هتصرخ زي الولايا لما تشرفنا في الكمبوشة.

- أنا اسمي حسن الطبجي.. حسن أشرف الطبجي.. مش حسن الهلالي.

وخرجت أول كلمات واضحة ورصينة لا تكشف عن ألم حسن وهو يدير رأسه محاولاً توقع تلقي صفعته التالية..

- يا ابني أنا هطلعلك شهادة ميلاد جديدة من عندنا.. انت حسن الهلالي.. وانا بدران.. بدران يا هلالي، انت ما اتفرجتش على فيلم أمير الانتقام ولا إيه؟

قالها الضابط وهو يطرقع أطراف أصابعه، ثم ضغط على جرس بارز في حافة مكتبه، دلف بعدها مخبران نحيفان، وفي إشارة متفق عليها سحبا حسن من ذراعيه المقيدتين واتجها به إلى غرفة أخرى، وبمجرد أن أغلق الباب عليه نزع أحدهما العصابة عن عينيه، وقد بدأت عيناه في الاعتياد على ضوء الحجرة الخافت، التي لم تكن سوى زنزانة خاصة ضيقة.. لا يوجد بها سوى صليب خشبي ضخم، مثبت في منتصف الغرفة بوضع مقلوب، تتدلى سلسلة حديدية من سقف الحجرة، مثبتة على بكرة دائرية، تنتهي بحزام جلدي بجوار الصليب المقلوب، يقبع في أحد أركانها طرفا سلك كهربي، لم يرَ حسن إلى أين ينتهي.. لكنه أيقن أن ليلته ستكون طويلة في هذه الغرفة، وظهرت على وجهه ابتسامة ضعيفة وقد أمسكه أحد المخبرين وبدأ الآخر في تقييد قدميه بالحزام الجلدي المتدلي من السلسلة الحديدية، وقام الأول بحمله حتى يستطيع الآخر أن يشد السلسلة على بكرتها لينقلب جسد حسن رأسًا على عقب، وأزاح المخبر الجسد مقاربًا للصليب المقلوب وبدأ الاثنان في ربطه مصلوبًا عليه، وغادرا الحجرة تاركين حسن الذي لم يدرِ كم مكث وهو على هذا الوضع، وقد بدأت الدماء تجد صعوبة في مقاومة الجاذبية الأرضية لتصل إلى أطرافه بعد أن استقرت في نصفه العلوي المقلوب، ضاغطة على صدره، وهو يحاول أن يتنفس بصعوبة وقد جحظت عيناه، وشعر بأن الدماء لن تجد مخرجًا سوى من عينيه وأذنيه التي ستنفجر..

دخل الضابط يرافقه مخبر يحمل كرباجًا ملفوفًا على ساعده، ووقف محاذيًا لحذائه وجه حسن الذي حاول أن يرى وجه الضابط دون جدوى.

وأشار الضابط، وهو جالس على كرسي في نهاية الغرفة، لمخبره ليبدأ ما اعتاد على عمله.. وعندها التقت عيناه عيني حسن الذي لم يطرف له جفن، والسياط تلهب جسده، ونظره معلق على وجه الضابط الذي أخذ ينفث دخانه محملقًا بدوره إلى الوجه المقلوب أمامه.

أشار الضابط بعصبية شديدة إلى المخبر المنهكة ذراعه الحاملة للسوط قائلاً له:

- خلاص يا حبروك.. خلاص..

وأولى ظهره قليلاً وهو يسحب السيجارة الأخيرة من علبته الزرقاء، وبعد أن أشعلها التفت فجأة ورقد على ركبتيه أمام وجه حسن، الذي أصبح كقطعة من كبد مجروح، وحملق فيه مليًّا ثم أردف محاولاً أن يحافظ على نبرته الهادئة الكاذبة:

- مش هينفع معاه الترتيب ده.. لازم نجيب من الآخر.

ضم المخبر قدميه بانتباه وهو ينظر إلى الضابط باندهاش، لم يلفت إليه نظر رئيسه، ثم تناول جردلاً من الماء خرج به من ركن مظلم وسكبه مرة واحدة

على الجسد الملتهب، وقد فك وثاق حسن وأنزله مرة واحدة ليتمدد على الأرض، وغادر الضابط ومخبره الغرفة تاركين حسن يتلمس بظهره برودة الأرض، ليخفف من حرارة جسده النازف وهو يتدحرج في جنبات الحجرة، إلى أن انفرج الباب عن مخبرين آخرين يرافقان بدران، بعد أن نزع عنه جاكت بدلته وشمر عن ساعديه، وأشار لهما قائلاً وقد تبدلت ملامح وجهه بصورة شيطانية عجيبة:

- جهزوا حسن الهلالي يا رجالة.

انقض المخبران على الجسد المنهك وقد ربط أحدهما ساعدي حسن إلى صدره بحبل غليظ، حتى أحس بأن رئتيه لا تستطيعان أن تنبسطا، وأخذ الآخر في تقييد رجليه معًا ثم ضمهما إلى صدره وقد تقوّس بدنه كوضع السجود، وعندها بدأ الخوف يظهر في عيني حسن عند رؤيته لكلب ضخم أسود الشعر مكمم الفم، ونظرات الضابط مصوبة تجاه عيني حسن. ثم أشار إلى الممسك بذيل الكلب قائلاً:

- شوف شغلك..

ارتفع صراخ حسن بمجرد أن شعر بأنفاس الكلب تقترب من مؤخرته، ثم تبتعها مجاورة رأسه برأس الكلب الضخم وفمه المكمم، وقد جثم الجلد ذو الشعر الخشن على ظهره وضحكات الضابط تطغى على صراخه دون جدوى.

ألقمت يدا المخبرين الجسد المنهك إلى جوف حجرة أخرى بعد أن فكا

قيوده، وتكوَّم حسن في منتصفها وقد اخترق ظلامها بعض خيوط الضوء المقبل من كوة صغيرة ذات قضبان حديدية أعلى الغرفة. واستمر انهمار الدموع من عينيه، وهو لا يجد سوى الأرض ليدفس رأسه فيها، ولم يرفع بصره إلى انفراج الباب وقذف أحدهم برغيف جاف من الخبز وكوب صفيح به بعض الماء.

اختفى الوقت وفقد حسن إحساسه بالزمن، فلم يدرِ ليلاً من نهار سوى من الضوء المقبل من خلال قضبان الكوة المرتفعة، التي تظلم بقدوم جلاديه ليعيدوا الكرَّة مرة بعد أخرى في حجرة الكلب أمام بدران.. إلى أن أنهك التعب جسده وقد أخذت الدماء تسيل من بين قدميه، فتناول الكوب الصفيح محاولا إزالة ما به، لكنه تجمد مكانه عند اصطدام عينيه بالجدار، وقد تحركت خيوط الضوء المرسلة من الكوة المرتفعة، على سطور نحتت عليه:

- إن كنت تقرأ هذه السطور فقد حدث معك ما حدث معي.. لقد أوصلت بدران إلى درجة الاستمتاع المجرد بتعذيبك، فكلهم على شاكلة واحدة، يضغطون عليك بكل الطرق ليصلوا إلى نقطة انكسارك.. وعندها لن يتركوك.. بل سيستمرون.. إلى أن تنهار.. إما بالموت وإما بالجنون.. أرجوك.. لا تسمح لهم بذلك، وأوجد لنفسك نقطة انهيار أخرى، فشلت أنا في إيجادها.. فأنا الآن على حافة الموت.

قلعة الخطيئة

بعد انتصاف الليل، بقليل وقد عمَّ سكونه مدينة السادس من أكتوبر، والمبنى الضخم المهيب الذي يطلق عليه من يدعون العلم ببواطن الأمور «قلعة الخطيئة».. ومن بوابة خلفية ضخمة خرجت سيارة «فان» سوداء اللون تحمل لوحة مطموسة المعالم، إشارة إلى تبعيتها لهيئة أمنية، يجلس خلف مقودها شاب يجاور الدكتور فؤاد، وقد نزعت المقاعد الخلفية وحل محلها حمالتان صغيرتان كسيارات نقل الموتى. وبمجرد أن مرقت من البوابة الحديدية حتى انتقل الطبيب إلى جوار كيسين أسودين مخصصين لحمل جثث وأشلاء القتلى، فتح الدكتور فؤاد «سوستة» الكيسين وأخرج من حقيبته الصغيرة سرنجتين بلاستيكيتين تحويان محلولاً شفافًا غرسهما في ذراعي الشابين فاقدي الوعي، وبعد أن سار المحلول في العروق، بدأ صدراهما في الصعود والهبوط بانتظام بعد برهة.

رجع الطبيب إلى مقعده الأمامي مرة أخرى، بجوار السائق، وقد تنهد وهو يخرج تليفونه المحمول ضاغطًا على أزراره، ليأتيه صوت بدران على

الناحية الأخرى قائلاً ببرود تعود عليه:

- أيوه يا فؤاد؟

- تمام يا بدران بك.. العيال سليمة.. إحنا رايحين فيلا مستر ريدفرن.. قدامنا حوالي نص ساعة إن شاء الله.

- طيب هايل.. والإجراءات المعتادة زي كل مرة طبعًا؟

- طبعا.. معاد الطيارة بعد خمس ساعات.. نكون جهزنا البضاعة بأمر الله.

- أوكي.. سلام.

أنهى فؤاد مكالمته مع بدران، والتفت إلى الشخص المجاور له خلف عجلة القيادة قائلاً بحماس:

- شد شوية يا حازم.. عاوزين نلحق نشفي البضاعة ونتلجها.

- حاضر يا دكتور.

أطفأت السيارة أنوار كشافاتها وهي تقترب من سور حجري مرتفع، تظهر من أعلاه قمم أشجار متلاصقة وكأنها حائط أخضر موازٍ لهذا الجدار، يمنع تلصص الأعين على ما يدور خلفها. ودارت السيارة حوله إلى أن وقفت أمام بوابة حديدية، فُتحت على مصراعيها عند ترجل فؤاد ضاغطًا جرسًا صغيرًا في

الجدار، ورفع وجهه إلى الكاميرا المخفية بينه وبين حلق البوابة. وكما فُتحت البوابة إلكترونيا أُغلقت دون أن يظهر أحد، بعد أن دلفت السيارة إلى ممر الفيلا، الذي تحيطه أشجار قصيرة على جانبيه، تفصل بينها مصابيح مزروعة في الأرض، ترسل ضوءها الضعيف لترشد المار إلى طريقه دون أن يتبين باقي معالم المكان.. توقفت السيارة مرة أخرى أمام بدروم الفيلا الخلفي، وهرع أربعة أشخاص ذوي بنية قوية ووجوه بيضاء مرقطة بلون بني.. لم يتبادلوا أي كلمة مع فؤاد وحازم. وفتحوا باب السيارة الخلفي، وبحركات آلية حملوا الشابين «المتكيسين» في جرابهما على «الترولي»، واتجهوا إلى القبو، يرافقهم فؤاد تاركًا حازم في السيارة ينفث دخان السجائر ويأكل من طبق الفاكهة الذي أتت به خادمة شقراء، ترسم ابتسامة ماكرة على وجهها الأبيض.

- أهلا دكتور فؤاد..

قالها رجل في أواخر العقد الرابع من العمر، قوي البنية على الرغم من قصر قامته، تحايل على صلعته بحلاقة باقي شعيرات رأسه بالموس. فأعطت له وجهًا مقبولاً على الرغم من دمامة سحنته، وقد ارتدى معطفًا أبيض وقفازين جراحيين. لم يستطِع أن يمد يده بهما إلى فؤاد، الذي هرول بسرعة إلى غرفة زجاجية تتراص على جدارها صنابير مياه وأحواض وزجاجات الصابون والمطهرات، وبعد أن استعد بتطهير يده، أتى مساعد له بقفازين واقترب الاثنان

من باب غرفة منزلق إلى الجدار، وقد فتح بمجرد اقترابهما منه على حجرة واسعة بها سريران للعمليات، وقد تمدد الشابان عليهما، يحيط بكل منهما فريق من المساعدين والمرضين انتظارًا للطبيبين.

وبدأ العمل بسرعة ونشاط في إخراج محتويات الجسدين المفتوح بطناهما وصدراهما بكلابات مثبتة بإحكام.. وتنقل الأعضاء المنزوعة بسرعة وحرص إلى صناديق صغيرة مبردة وأكياس يفرغ منها الهواء بجهاز لم يتوقف عن العمل طيلة العملية. وبعد أن جففت ممرضتان جبهتي الطبيبين عدة مرات، تنهدا بعمق، دلالة على انتهاء عملهما، ونظر الدكتور «إيجن» إلى زميله قائلاً:

- جهز لى خصيتين لو تسمح يا دكتور فؤاد..

ضحك فؤاد مندهشًا وهو ينظر إلى محدثه قائلاً بسخرية:

- إيه الحكاية؟ مزنوق في حاجة ولا إيه؟

- صديقي في ألمانيا عاوز أعمل معاه واجب.. زي ما بتقولوا في مصر.. وابعتله أربعة.. مجاملة كده.

ضحك فؤاد وهو يقترب بين ساقي ما تبقى من الجسد الممدد أمامه، باسطًا يده لمساعدته الواقفة بجوار منضدة الأدوات، وقد أشار إليها لتناوله مبضعا آخر.. وبدأ في عمله ببساطة واحتراف، قائلاً:

- انت تؤمر يا دكتور.. بدل ما يترموا خسارة.

ضحك «إيجن» وهو يؤدي عمله بهدوء في استئصال هديته هو الآخر، وغادر الاثنان غرفة العمليات ليغتسلا تاركين مساعديهما ينقلان بضاعتهما إلى غرفة التجهيز والتغليف وكتابة مواصفات كل عضو على حدة. ودلف الأربعة السابقون بأحذية بلاستيكية ذات رقبة طويلة، و«مرايل» من المشمع الواقي على صدورهم، بعد أن أشار لهم «إيجن» بانتهاء عمله. وأغلق الباب على الأربعة وقد تعالت أصوات مكتومة لمناشير كهربية إلى مسامع الطبيبين وهما ينزعان عنهما الملابس الملوثة بالدماء.

تنهد فؤاد وهو يتناول كأسًا من الويسكي ويشعل سيجارًا أعطاه له «إيجن» وهما جالسان في مكتبه يستريحان بعد أداء عملهما بمهارة وسرعة ككل مرة. ثم استأذن فؤاد لينصرف، ولكن إشارة من يد «إيجن» أجلسته في مقعده ثانية وهو يقول مشيرًا إلى ساعة ذهبية ترقد على مكتبه الأنيق في الغرفة:

- استنى شوية.. سعادته خارج دلوقت.

سكت فؤاد وهو يخفي امتعاضه مع نظرة «إيجن» الباردة تجاهه.. وقد تعالى نباح الكلاب في بيتها المجاور للقبو، بصورة وحشية، ثم أعقبها صوت حشرجتها وهي تحاول أن تبتلع ما قذفوه إليها من وليمة شهية تعودت عليها مرتين كل شهر.

انطلقت سيارة بيضاء فارهة تحمل لوحة خضراء ذات رقمين وثلاثة حروف بالإنجليزية، اختصارًا لـ«شخصية مهمة جدًّا»، تقبع أسفل كلمة هيئة دبلوماسية. يخفي زجاجها الأسود راكبها الممدد على الكنبة الخلفية، وقد خرجت من بوابة أخرى غير التي دلفت منها السيارة السوداء. وقد تقدمتها عربة للحراسة تمرق في الشوارع الهادئة إلا من صوت مآذن المساجد تصدح بقرآن الفجر. إلى أن وصلت إلى مطار القاهرة وترجل راكبها متجهًا إلى صالة مغادرة كبار الزوار، يرافقه مساعدوه الحاملون لحقائبه الدبلوماسية غير القابلة للتفتيش. وتقلع الطائرة متجهة إلى إسبانيا.

سوهاج - إسبانيا - القاهرة

علا صوت القارئ في دار المرحوم كامل، ينصت له المعزون لولده حسين في وفاة والدته، وتقبع زوجته شيماء متشحة بسوادها وسط حريم العائلة، تبكي دون صوت، تحسبها النسوة باكية على حماتها، تغيب عنهن متذكرة أخاها المفقود، وأباها منتظر الموت، وأمها التي بدأ يتوه عقلها المكلوم على وليدها، يرن هاتفها لتجد اسم عمها سيف الدين مضيئًا على شاشته، ترد بوهن وصوت مبحوح، يأتيها صوته من مطار مدريد معزيًا إياها ومتسائلاً عن رد مَن في الدقي، تجيبه كالعادة باحتمال عدم سماعهم جرس التليفون. ينهي مكالمته بدعوته لها. ينظر إلى زوجته نوال الجالسة على كرسي متحرك، يدفعه ابنها محمد وخالته فيفي، يرون في عينيه ما يخشى لسانه من قوله، يصمتون وهم يشاهدون على شاشة التلفاز في صالة المطار ما تنقله القنوات الأجنبية، تترقرق الدموع في المقل، وتنخفض الرءوس إلى الأرض وتلهج الألسنة في صمت بكلمة واحدة: يا رب.

انهمرت الدموع كالسيل من عيني شهيرة وهي تتشح بالبياض في جلستها على سجادة الصلاة، ترفع كفيها، وبصرها شاخص إلى السماء تناجي

ربها، وتشكو إليه ما حل بها وبزوجها الراقد في فراشه، معتزلاً الحياة، لا يقوى على الحركة أو الكلام، بعد نكبة ولدها.. وقد عمَّ البيت الخالي من أنفاس البشر سكون وبرودة المقابر على الرغم من انتصاف النهار.

لم تدعُ شهيرة بالانتقام.. بل كانت تسأل ربها أن يعيد إليها ابنها.. وقد ألجمت دموعها، كالعادة، لسانها، الذي يثقل عن الحركة في الفم، كلما هجم الحزن على قلبها، فلم تجد سوى إيماءات رأسها كالخرساء ونظراتها إلى الأعلى كأنها كلمات تستعطف بها ربها ليرأف بحالها، حتى سمعت مناديًا من بعيد لم تستوضح كلماته، كأنها صرخة يعم السكون بعدها تمامًا، كانقطاع الكهرباء عن مدينة بأكملها فيعم هدوء القبور عليها، أرهفت السمع حتى وصلت إلى أذنيها كلمة كأنها نبضة في قلب مريض.. ينبض مرة ويسكت فترة.. ويكرر فعلته ثانية.. «الشعب».. ويعم الصمت برهة ثم يقترب ويتضح أكثر من سابقتها.. «الشعب.. يريد».. خُيِّل إليها أنه هتاف آت من ملائكة السماء، ولكنها انتبهت أنه مقبل من ملائكة الأرض، انتفضت مهرولة إلى النافذة، لتجد السائرين في الشوارع كأنهم الجيش في معركة، وعلم مصر يتوسط الصفوف، التي تردد: «الشعب.. يريد.. إسقاط النظام»، زاغ بصرها بين السماء والأرض، واهتز بدنها بعنف وقد سرت الدماء حاملة معها قشعريرة انتفضت لها عروق جسدها بعد أن جف كأرض لم يقرب منها الماء سنين فارتوت، لم تدرِ بنفسها وهي تضع

قدميها في حذاء لم تنظر إليه موضوع بمدخل الباب، وهرولت مندسة بين الشباب الصارخ في نغمة واحدة، لا يستطيع أعتى مايسترو أن يوحد نغماتها وسط هذا الحشد كما هو أمامها. نقلة قدم واحدة.. صوت واحد.. نبضة واحدة.. جاءت لها قوة لم تدرِ سببًا لها.. ربما علامة من علامات الطريق.. إشارة من السماء.. «ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك». لم تلتفت إلى إسدالها الأبيض، واتجهت مع الحشد دون أن تعرف وجهته، إلى أن وصلت إلى ميدان التحرير. وقفت وسط الناس لا تعلم أين هي من كثرة الواقفين، وقد ضمت قبضات أيديهم المرفوعة، تبدلت صورة الميدان القديمة وانتظام أسواره وإشارات مروره وتكدسه بالسيارات، إلى مشهده الآن وقد تحول إلى أرض نابتة، بأشجار الحرية شامخة صارخة، لم يتضح صوت طلقات الرصاص الآتية من بعيد صوب القلوب النابضة بصوت الحرية، تشاهد وجوهًا يخيَّل إليها تارة أنها وجه أدهم وتارة أخرى محمد وثالثة حسن ورابعة رشدي، تسقط الأجساد على الأرض وتسلم الروح مع انفراج الشفاه عن آخر هتاف.. ترى الأعين وقد انطفأت الحياة منها، فزادها إصرارًا، إلى أن أصابتها شظية خرطوش سكنت في وجهها لينفجر بالدماء.. حملها شباب ينظر إليها باسمًا مشفقًا، يتذكر كل منهم وجه أمه وقد علت ابتسامتها شاخصة إلى وجوههم وهي تردد: «الله عليكم يا ولادي».. أرقدها بعضهم بجوار من توقعوا أن يكون حصن الأمان وبيت الله.. ساحة مسجد عمر مكرم.. بعيدًا عن رصاص المجانين، اقتربت منها بعض الفتيات يحملن

زجاجات من محلول ملحي يطهرن به جروح المصابين ووجوههم المضرجة بالدماء، مطمئنات إياها بأن إصابتها ليست بخطيرة، يضمدن وجهها بالشاش الأبيض كبياض ملابسها المخضبة بالدم، طالبات منها المكوث للراحة، وقد أشارت إحداهن إلى هذا المجذوب المرابض معهم أسفل الكوبري منذ ثلاثة أيام، وقد خفن منه في البداية بنصف بنطاله الممزق وشعره الطويل المتلاصق بكتل من الطين المختلط بشعر ذقنه، وقد اختفت ملامح وجهه تحت هذه الغابة القذرة. لكنهن اطمأنن له، بعد مراقبتهن له، يتركن شهيرة مستندة بظهرها على جدار المسجد، وانصرفن إلى باقي مصابي الميدان الذين يأتي بهم الشباب أفواجًا إلى الساحة المتلئة، جلست وحيدة تحمد الله، وتطلب العدل، لم تفارقها صورة ابنها في وجوه كل من رأتهم.. اقترب منها المجذوب.. لم تخَف.. بل اعتدلت في جلستها.. دنا منها أكثر.. أمسك كفيها يتحسس بهما ملامح وجهه المبعثرة، لثم يدها بشفاهه.. أغمض عينيه الذابلتين.. انغرس في صدرها.. يشم رائحتها ليشعر بالأمان.. يبكي وهي تقبل رأسه قائلة:

- تحيا مصر.

الفهرس

مصطفى موسى

ثورة البلاليكا

كانت تشعر بشيء غير مريح في عيون المصريين الذين تتعامل معهم.. فهم يستكثرون عليها أن تكون ذات رأى صائب، أو أن يستمعوا لها بإنصات، وغالباً ما كانت تشاهد في وجوههم بلاهة و استنكار وترى كلمات لا ينطقون بها " هي فاكرة نفسها فاهمة كل حاجة..!!! ولا عشان شوية الانجليزى اللى دوشانه بيهم..!!!"، فآثرت السلامة وبحثت عن راحتها وسلامتها النفسية مع من يشبهونها، فأبت أن تعمل في أي مكان مصبوغ بالسلوكيات المصرية، وعملت في القنصلية البريطانية بالإسكندرية بمرتب يمكن أن يكون أقل من مهاراتها وإمكانياتها في مواقع أخرى.

إلى أن أتتها الفرصة للعمل في السفارة البريطانية بأسبانيا، بعد أن أثبتت كفاءة، حسدها عليها الجميع. وتتذكر دائماً تلك الكلمات التي ختم بها ذلك الإنجليزي عمله معها

يوم له:

- لن يقدرك أحد هنا... فالجميع يخشى ذكائك، بشخصيتك النادرة، وهو ما سيكون سبب تعاستك في ا



